متمردة من القرية

شروق عطيفة

رواية

ملاحظة الناشر

هذه الرواية عملٌ أدبيٌّ خيالي. أيُّ تشابهٍ مع شخصيات حقيقيَّةٍ أو أحداثٍ واقعيَّةٍ هو محضُ مصادَفة. جميعُ حقوقِ النشرِ والترجمةِ والتوزيعِ محفوظة

الالهام للنشر

www.drelhamonline.com

إلى كلِّ روحٍ أشعلَ فيها القهرُ جذوةَ التمرُّد،

وإلى كلِّ امرأةٍ رفضَت أن تكونَ أسيرةَ الظلم.

الفهرس

الفصل الأول: الانقلاب 4

الفصل الثاني: الجذور 9

الفصل الرابع: ضغطُ الإرادات................................. 15

الفصل الخامس: عُمَر 19

الفصل السادس: قرارُ مجنون..................................... 27

الفصل السابع: المتمرِّدتان... 35

الفصل الثامن: انكشافُ الأسرار................................. 47

الفصل التاسع: ورطةُ الحُبّ....................................... 58

الفصل العاشر: كنزُ الأرض....................................... 67

الفصل الحادي عشر: وجدتُ عمِّي 78

الفصل الأخير: فجرٌ جديد... 84

الفصل الأول: الانقلاب

انقلبَت بنا الحافلةُ ونحن نشقُّ طريقَ الفرار نحو العاصمة، كأنَّ الأرضَ ذاتَها أبَت أن تُودِّعَنا بهدوءٍ وكرامة. كأنَّها أرادَت أن تقولَ لنا: لا يُغادرُ هذا المكانَ مَن وُلِدَ فيه إلا بثمن.

في تلكَ اللحظةِ المضطربةِ التي تتشابكُ فيها الثواني وتتلاشَى حدودُ الوعي، تمنَّيتُ لو أنَّ الأرضَ تنشقُّ وتبتلعُني، لو أنَّ روحي ارتضَت الرحيلَ في تلكَ اللحظة وأراحَتني من ذلك الخوفِ الذي كان يشلُّ كياني، ومن ذلك الهمِّ الذي هبطَ عليَّ بكلِّ ثقلِ الجبال. غيرَ أنَّ أنفاساً ظلَّت تتردَّدُ في صدري بعنادٍ، وقلباً ظلَّ ينبضُ بإصرارٍ لا يُفسَّر، يُذكِّرانِني أنَّني حيَّة، وأنَّ الحياةَ لا تستأذِنُ حين تُطالبُ بديونها.

فتحتُ عينَيَّ فإذا بي منقلبةٌ على رأسي، محشورةٌ بين كرسيَّين في عناقٍ خانقٍ أرادَ لي الذلَّ لا الحماية. لم يَرحَم الخوفُ هشاشَتي؛ بل أمدَّني طاقةً غريبة، تلكَ الطاقةُ المجنونةُ التي يستعيرُها الأحياءُ من رعبِهم حين تُضيَّقُ عليهم السُّبُل، فيقاومون العدمَ بلا سلاحٍ إلا اليقين الأعمى بأنَّ النفسَ لا تُستسلَم.

دفعتُ الكرسيَّ الأمامي بكلِّ ما تبقَّى في جسدي من جهد، فلم يتحرَّك. التفتُّ يميناً فإذا بابنةِ عمِّي أميرة محشورةً بين الحديدِ والجلد، مغمىً عليها، وجهُها شاحبٌ كبدرٍ طالَه الكسوف. التفتُّ يساراً فوجدتُ النافذةَ مفتوحةَ الصدر، فتشبَّثتُ بحافَّتيها وسحبتُ جسدي بعناءٍ حتى خرجتُ إلى الهواء الطلق

نهضتُ وقد خارَت قواي وارتجفَت ركبتاي. رفعتُ رأسي فرأيتُ الحافلةَ بكلِّ مَن فيها قد انقلبَت كوحشٍ أصابَه المِقتَل. الدخانُ المتكاثفُ يعانقُ الغبارَ الذي غطَّى كلَّ شيءٍ كصفيحةٍ من الرماد، والعجلاتُ لا تزالُ تدورُ في فراغٍ يائسٍ كأنَّها لا تعلمُ بعدُ أنَّ المسيرَ قد توقَّف. كان ذلك فجراً لا كأيِّ فجر، وصمتٌ لا كأيِّ صمت؛ ذلكَ الصمتُ الذي يسبقُ لحظةَ استيعابِ الكوارث.

المكانُ وادٍ في أسفلِ جُرفٍ حادٍّ والطريقُ في الأعلى كخيطٍ رفيعٍ على حافةِ الوجود. قلوبٌ مفجوعةٌ يسحبُ أصحابُها أجسادَهم بصعوبةٍ من بطنِ الحافلة، ومنهم من يئنُّ في صمتٍ أوجعُ من أيِّ صُراخ.

ولما بدأتُ أستوعبُ ما جرى، تدافعَت في رأسي صورةُ الهربِ والطريقِ وكلُّ ما كان، فأسرعتُ نحو أميرة. حاولتُ إيقاظَها فلم تستجِب، فسحبتُ جسدَها بعنايةٍ حتى أخرجتُها من بين الحديد، وهي تئنُّ من وجعٍ لا تعلمُ بعدُ أينَ مصدره. حين استقرَّ جسدُها خارجَ الحافلةِ رفعتُه على كتفَيَّ وبدأتُ تستفيقُ قليلاً، تعرجُ ولا تقدرُ على السير. وأنا لا أريدُ أن يلتفتَ إلينا أحد.

عاجلاً أم آجِلاً، سيتوقَّفُ المارَّةُ وسيأتي من يُنقِذُ من يستطيع. لذا حملتُها والخوفُ يحملُني هو الآخر بيديه الثقيلتين، وحاولتُ أن أتوارَى خلفَ صخرةٍ أو جُرف. لم أجِد سوى صخرةٍ كبيرةٍ بعيدةٍ بما يكفي عن الحافلة، تجثمُ هناك كشاهدٍ صامتٍ على ما جرى. والشمسُ بصمتِها الأزلي ترقُبُني، والأشجارُ والحجارةُ صارَت هي الأخرى تخنُقُني بما لا تقوله.

وضعتُ أميرةَ خلفَ الصخرةِ بهدوءٍ ورتَّبتُ ملابسَها ومسحتُ الغبارَ عن وجهِها. استعادَت وعيَها وصرخَت من الألم. كان كسرٌ في ساقِها قد أيقظَها بوجعٍ حادٍّ كالإبرة. أغلقتُ فمَها بكفِّي وأخبرتُها بأنَّنا سنكونُ بخير. صارَت تئنُّ بصمتٍ ونظرَت إليَّ والدموعُ تملأُ عينيها. وأدركنا كِلتانا، في تلكَ اللحظةِ

التي لا تحتاجُ كلاماً، أنَّنا وقعنا في مصيبةٍ أكبرُ من سابقَتها. فانهمرَت دموعي هي الأخرى.

قرَّرتُ ألَّا أترَكها على هذا الحال. استجمعتُ ما بقيَ لي من رباطةِ جأشٍ وقلتُ لها إنَّنا سنكونُ بخير. طلبتُ منها أن تصبرَ وأن تبقى هادئةً حتى أُحضرَ من يُسعِفُها، ثمَّ مشيتُ أهيمُ على وجهي في أرضٍ خاويةٍ لا تعمرُها غيرُ الصخورِ وشجرِ الطلحِ المترامي. ولم يكن يزالُ أملي بالله أكبرَ من يأسي.

سِرتُ وطالَ السيرُ حتى استوى في وطأتِه على جسدي، والأفقُ يمتدُّ ويبتعدُ كلَّما اقتربتُ منه كحلمٍ يهربُ من يدي. بدأَ العطشُ يشتدُّ بي حتى انهرتُ على ركبتَيَّ مطأطئةَ الرأس، أبكي وأدعو لله أن يُعينَني. وبينما أنا على حالتي، خُيِّلَ إليَّ أنَّني أسمعُ صوتاً من بعيد.

رفعتُ رأسي فإذا بسيارةٍ تشقُّ طريقَها في الأرضِ الوعرةِ قادمةً من بعيد. هل ما أراه حقٌّ أم أنَّ اليأسَ قد أسكرَني؟ استجمعتُ ما تبقَّى لي من قوَّةٍ ورفعتُ يدَيَّ أُلوِّحُ بهما. اقتربَت ثمَّ اقتربَت.

يقودُها شابٌّ في مقتبلِ العمر، وفي صوتِه دفءُ الاستغرابِ الصادق:

خيراً يا أُختي، ما الذي جاءَ بكِ إلى أرضٍ خاويةٍ كهذه وحدَك؟ اصعَدي، سأُوصِلُكِ إلى حيثُ تشائين.

في تلكَ اللحظةِ قرَّرَت غريزةُ البقاءِ فيَّ ما سيقولُه لساني. فقلتُ له وأنا أصطنعُ اللهجةَ البدوية: أنا يا أخي بدويَّةٌ من بدوِ الشرق.

قال: نعم، سمعتُ.

قلتُ: لي ثأرٌ أطلبُه لإخوتي الذين لم يبقَ منهم أحد، ولي قريبٌ في العاصمةِ هو من سيأخذُ بحقِّي. انقلبَت بنا المركبةُ ولا أريدُ أن يعرفَنا أحدٌ فيُعيدَنا قبلَ أن أصلَ.

تغيَّرَت ملامحُه ومدَّ نحوي قنينةَ ماء:

لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله. اشرَبي واصعَدي، سأُقِلُّكِ إلى أقربِ مدينة.

قلتُ: أرجوكَ يا أخي، أختي تركتُها خلفي. انكسرَت قدمُها ولم تعُد تقدِرُ على السير.

فقال دون تردُّد: إذن نأخذُها أوَّلاً إلى أقربِ مركزٍ صحِّي. هيَّا اصعَدي.

صدَّقَني تماماً. كنتُ قد اختلقتُ كلَّ ذلك واخترعتُه من لا شيء. والحقيقةُ التي لم أُخبِر بها أحداً في تلكَ اللحظة، هي أنَّ اسمي ليلى.

الفصل الثاني: الجذور

وُلِدتُ وترعرعتُ في قريةٍ نائيةٍ تبعُدُ حتى عن أقربِ مدينةٍ متحضِّرة، كأنَّها قرَّرَت منذُ الأزلِ أن تعيشَ خارجَ مسارِ العالمِ ولا تأسَفَ على ذلك. قريةٌ هادئةٌ بعمقٍ بدائيّ، تنامُ مبكِّراً وتصحو مع أذانِ الفجر، ولا تعرفُ للتغييرِ وجهاً.

الآبارُ مصدرُ مائِنا، وموتورٌ بترولِيٌّ واحدٌ يتقاسمُه عددٌ من المنازلِ مصدرُ الكهرباءِ الوحيد، لا يُشعَلُ إلَّا بعدَ الغروب، كأنَّ النورَ له مواعيدُ يلتزمُ بها. الناسُ يعيشونَ على الزراعةِ وتربيةِ الأنعام، حياةً بسيطةً يتشاطرُ فيها الجميعُ قسوةً لا يُسمُّونَها قسوةً لأنَّهم لم يعرفوا غيرَها. والرجالُ يحملونَ السلاحَ كما يحملونَ ثيابَهم، لا تفاخُراً ولا تهديداً، بل لأنَّ الأرضَ الخاويةَ علَّمَتهم أنَّ الإنسانَ في مواجهةِ العالمِ وحيد.

أُسرَتي: أبي الحاجُّ علي، وأمِّي الحاجَّةُ زينب، وإخوتي السِّتَّة: محمود وعبدُ الله وسالم وهيثم وعبدُ القوي. وأنا، الفتاةُ الوحيدةُ بينَهم. كنتُ غرَّةَ القلادةِ في عقدِ تلكَ الأسرة، ومعَ تلكَ المكانةِ جاءَت مسؤوليَّةٌ لم تُفرَض عليَّ بل نبتَت في داخلي كما تنبُتُ الجذورُ تحتَ الأرض، بهدوءٍ ودون استئذان.

حياتي كانَت مليئةً بالحركةِ والإيقاع. مع كلِّ فجرٍ وبعدَ الصلاة، أتوجَّهُ إلى التَّنُّورِ لأُعِدَّهُ للخبز. صياحُ الديك، ورائحةُ الحطبِ المحترق، والنسمةُ الباردةُ التي تُداعبُ الوجوهَ قبلَ أن تستيقظَ الشمس، وأصواتُ العصافيرِ المتفرّقةُ كنغماتِ موسيقى لم يكتُبها أحد هذه الأشياءُ نقشَت نفسَها في روحي ولن أنساَها ما حييت.

يومُ الجمعةِ كانَ أجملَ الأيام. أحملُ ملابسَ إخوتي فوقَ رأسي وأمشي إلى البئرِ والحماسةُ تملؤُني كأنِّي ذاهبةٌ إلى عيد. احتفالٌ بلا دعواتٍ تجتمعُ فيه فتياتُ القرية، يغسِلنَ ويضحكنَ ويلعبن، وتمتدُّ الملابسُ المبهجةُ على الحبالِ كلوحةٍ رسمَتها يدٌ مَرِحة. يومٌ فيه من الفرحِ ما يكفي لبقيَّةِ الأسبوع.

وما كانَ يخترقُ تلكَ الحياةَ البسيطةَ ويفتحُ فيها نوافذَ على عالمٍ آخر، هو ذلكَ الصندوقُ المتكلِّمُ التلفازُ الذي كانَ يُقحمُنا قسراً في العالمِ الواسعِ الذي لم نذهَب إليه. بعدَ كلِّ غروبٍ حينَ يعملُ الموتورُ ويستيقظُ النور، أتسمَّرُ أمامَه

أُشاهدُ الأخبارَ والمسلسلاتِ والبرامجَ العلمية. تلكَ الصورُ المتحرّكةُ كانَت تفتحُ في أعماقي آفاقاً من التخيُّلِ والحُلم، كأنَّ أحداً يطرقُ باباً لم أكن أعلمُ حتى أنَّه موجود. وأميرةُ ابنةُ عمّي مصلح، وحيدةُ أسرتِها من الإناثِ أيضاً، كانَت تتسلَّلُ ليلاً من المنزلِ المجاورِ لتتشاركَ تلكَ المتعةَ معاً في همسٍ وضحكٍ مكتوم.

وهكذا كانَت أيَّامي، متكرِّرةٌ جميلةٌ خفيفة. المسؤوليَّةُ فيها هوايَتي، والحياةُ الاجتماعيَّةُ لُعبَتي ومتعتي. وما أجملَها من أيَّام.

غيرَ أنَّ الإنسانَ إذا اطمأنَّ للحياةِ وبدأَ يألَفُها، جاءَته لحظةٌ تسرقُ منه كلَّ ما ظنَّ أنَّه راسخ.

أتذكَّرُ تماماً تلكَ الليلة. الألمُ الذي طعنَ أحشائي، والحزنُ الذي فاقَ قدرتي على احتوائه، والوقتُ الذي توقَّفَ فجأةً عن التدفُّق.

صَحَونا في منتصفِ الليلِ على صُراخِ أُمّي. لم نكَد أنا وإخوتي نصلُ إليها حتى رأيناها تسقطُ مغشيّاً عليها كريشةٍ في مهبِّ الريح. اندفعنا نحوَها نحملُها، ثمَّ التفتُّ إلى أبي متعجِّبةً من صمتِه — لماذا لم يستيقِظ على صُراخِها؟

ناديتُه. مرَّةً. مرَّتين. عَشراً.

لم يُجِب.

أدركَ أخي الأكبرُ محمود ما عجزتُ أنا عن إدراكه، فانكبَّ عليه يصرخُ ويُمسِكُه بيديه كمن يحاولُ أن يُعيدَ إلى جسدٍ ما غادرَه إلى غيرِ رجعة.

في تلكَ اللحظةِ جُرِّدتُ من حواسِّي جميعاً. لم أَعُد أسمع. لم أَعُد أشعر. أظلمَت الدنيا فجأةً كما تُطفأُ الشمعة، لا تدريجَ ولا إنذار. كنتُ أضربُ وجهي وأنتفُ شعري وأنا لا أُصدِّق، كأنَّ شيئاً أُنتُزِعَ من صلبِ روحي ولم يُستأذَن.

لم تكن الشمسُ قد أشرقَت حتى انتشرَ الخبرُ كالنارِ في الهشيم، وأقبلَ المعزُّونَ من كلِّ حدبٍ وصوب. لحظةٌ يرتفعُ فيها النحيبُ ولحظةٌ يسودُ الصمتُ المطبَق. وبينَهما أدركتُ لأوَّلِ مرَّةٍ في حياتي شيئاً اسمُه الموت تلكَ الحقيقةُ الوحيدةُ الثابتةُ التي نتغافَلُ عنها جميعاً رغمَ يقينِ وقوعِها. كانَ الجميعُ ينظرُ إليَّ بعيونِ الشفقة، كما لو أنَّ الخلودَ في جيوبِهم مُخبَّأ.

مضى الشهر، وشيئاً فشيئاً بدأنا نتقبَّلُ ما لا يُتقبَّل. لكنَّ الحياةَ لم تَعُد تبدو لي كما كانت. وجوهُ الناسِ من حولي لم تَعُد هي الوجوهَ ذاتَها. أصبحتُ أرى ما لم أكن أراه، وأنتبهُ لما كنتُ أتغافلُ عنه.

كانَ وفاةُ أبي الدفعةَ التي تحرَّكَت بعدَها كلُّ الأحجار. كأنَّ حياتَنا كانَت صخرةً ثابتةً على قمَّةِ جبل، فلمَّا انزلقَت لم يَعُد شيءٌ يوقِفُها.

كانَ عمِّي مصلحٌ الأقربَ إلينا من بينِ الجميع، يُطمئنُّنا دائماً بأنَّه لن يترُكَنا نواجهُ العالَمَ وحدَنا. فحينَ وقعَت القسمةُ بعدَ رحيلِ أبي، أصرَّ ألَّا تُقسَّمَ الأراضي قبلَ أن يتزوَّجَ إخوتي، وأنَّه سيتكفَّلُ برعايةِ الأرضِ حتى يشتدَّ عودُهم ويقوموا لأنفسِهم. لكنَّ القدر، ذلكَ السلطانَ الذي لا يُستأذَن، كانَ له رأيٌ آخر.

اجتاحَ الجفافُ القريةَ فجأةً كضيفٍ لا يُعلِنُ عن نفسِه. شحَّت الأمطارُ وجفَّت الآبار، وبدا كأنَّ الأرضَ قرَّرَت أن تقبِضَ ما كانَت تُعطيه بسخاء. حفرَ إخوتي المزيدَ من الآبارِ فلم يجنوا منها غيرَ الخسارةِ والوقتِ الضائع. أمَّا عمِّي فقرَّرَ أن يُوسِّعَ حفرياتِه في أرجاءِ القرية، فجاءَته المكافأةُ من حيثُ لم يحتسِب؛ نضحَت بئرٌ فوقَ أرضِه كأنَّها كانَت تنتظرُه، فحفرَ أكثرَ فاكتشفَ كنزاً من الماء. كانَت تلكَ فاتحةَ رزقِه؛ مدَّ الأنابيبَ وضاربَ في الأسعار، وفي وقتٍ قصيرٍ تحوَّلَ من رجلٍ يُعطي إلى رجلٍ يَملِك. ومدَّ إلينا الأنابيبَ دون مقابل، كما كانَ دأبُه دائماً كريمٌ لا يُستغرَبُ منه الكَرَم.

في تلكَ السنةِ ذاتِها افتُتِحَت مدرسةٌ للبناتِ في القرية، بدائيَّةٌ بكلِّ ما تعنيه الكلمة، شيَّدَها أهلُ القريةِ من الطينِ بأيديهم وأموالِهم الخاصة. لم يكن طموحُ أهلِ القريةِ كبيراً؛ جُلُّ ما أرادوه أن يتعلَّمَ بناتُهم القراءة. غيرَ أنَّ ذلكَ كانَ بالنسبةِ لي حدثاً عظيماً غيَّرَ مسارَ روحي. التحقتُ بها أنا وأميرةُ وكثيراتٌ من بناتِ القرية. مرَّت السنواتُ وأنا ألتهمُ كتبَ المدرسةِ بنهمٍ لم أكن أعرفُ له تفسيراً، وأصبحَت الدراسةُ متعَتي الوحيدة، ووجدتُ في الكلماتِ المكتوبةِ نافذةً على عوالمَ لا تعرفُ لها القريةُ طريقاً.

✦ ✦ ✦

الفصل الرابع: ضغطُ الإرادات

خلالَ تلكَ السنواتِ، كانَ الخطَّابُ يتوافدونَ على عمِّي وأخي كأنَّهم يستعجلونَ قدَراً لم يُكتَب بعد، وكنتُ في كلِّ مرَّةٍ أردُّهم بهدوءٍ لا يُخطئونَه ولا يستطيعونَ كسرَه. لم يكن رفضي عناداً ولا كبرياءً كانَ شيئاً واحداً فقط: أن أُكملَ ما بدأتُه، أن أصلَ إلى نهايةِ المراحلِ الستِّ التي فتحَت لي أبوابَها.

صارَت الدراسةُ هي الأرضُ التي أقفُ عليها، وما عُدتُ أتحمَّلُ أن يقتربَ منها شيء. ومع ذلكَ لم أتركِ البيتَ يوماً يشكو غيابي، فالمنزلُ كانَ مسؤوليَّتي قبلَ أن يكونَ واجباً، خاصَّةً منذَ أن بدأَت صحَّةُ أمِّي تتساقطُ ورقةً ورقةً بعدَ رحيلِ أبي، كأنَّ جسدَها كانَ يعلمُ ما لا يستطيعُ القلبُ أن يقولَه.

حينَ أكملتُ المرحلةَ السادسةَ كنتُ في السادسةَ عشرةَ من عمري، وكانَ الضغطُ من إخوتي قد تراكمَ حتى صارَ هواءَ البيتِ الذي أتنفَّسُه.

وفي يومٍ من تلكَ الأيَّام، جاءَت امرأةٌ من القريةِ المجاورةِ تحملُ طلباً في كفِّها وأملاً في عينَيها، تطلبُ يدي لابنِها من بيتٍ عريقِ الأصلِ والنسب. استبشرَت أمِّي بها كما يستبشرُ الظمآنُ بسحابة.

لم أكن مستعدَّةً. جاءَ أخي محمودٌ تلكَ الليلةَ وأنا متسمِّرةٌ أمامَ التلفازِ كعادتي، وفي نبرتِهِ شيءٌ يُشبهُ الحكمَ المقضيَّ به.

قالَ: ليلى، اليومَ جاءَت امرأةٌ تخطُبُكِ لابنِها، وهي من بيتِ حسبٍ ونسب... نتوكَّلُ على الله؟

شيءٌ ما انتفضَ في داخلي، كبرياءٌ وغضبٌ متشابِكان لا يُفرَّقُ بينَهما. التفتُّ إليه.

قلتُ: الآن، أنا من ستتزوَّجُ أم أنت؟ أنا لا أريدُ الزواجَ الآن. لماذا هذه العَجَلة؟

قالَ: لماذا تُواصِلينَ الرفض؟ هل ثمَّةَ سببٌ يخفى علينا؟ أنا أعرفُ الشابَّ وعائلتَه وأراهم مناسبينَ تماماً لكِ ولنا.

أحكمتُ موقفي كما يُحكِمُ البنَّاءُ أساسَه.

قلتُ: الزواجُ نصيب. ولو تقدَّمَ بي العمرُ لن آخذَ إلَّا نصيبي. ولن أتزوَّجَ قبلَ أن يتزوَّجَ إخوتي.

خرجَ غاضباً يجرُّ حنقَه خلفَه. وبقيتُ أنا كما كنت. هذا قلبي. وتلكَ قناعَتي. ولم أكن يوماً سهلةً على الإقناع.

في تلكَ السنةِ بعينِها، قرَّرَ عمِّي مصلحٌ أن يجمعَ الفرحَ كلَّه في مكانٍ واحد؛ زوَّجَ اثنَين من أبنائِه واثنَين من إخوتي، وتكفَّلَ بكلِّ شيءٍ حتى لا يشعرَ أحدٌ بثقلِ المناسبة. كانَ العرسُ حديثَ الناسِ طويلاً، جاءَ فيه الرجالُ من كلِّ قبيلة، وفُتِحَت البيوتُ لاستقبالِهم كما اعتادَت القريةُ دائماً أن تتشاركَ كلَّ شيء، حتى أبوابَها.

لكنَّ الدنيا لا تطيقُ أن يمتدَّ الفرحُ دون أن تُقاطِعَه. لم تمضِ أشهرٌ حتى جاءَ النبأُ الذي يُسكِتُ كلَّ شيء: قُتِلَ عمِّي. رصاصةٌ في ليلٍ أسودَ لم يُجِب على سؤالٍ واحد، ولم نعرِف مصدرَها حتى اليوم. غابَ كما يغيبُ الظلُّ حينَ تختبئُ الشمس، فجأةً، دون أن يودِّعَ أحداً.

رحمَكَ اللهُ يا عمِّي. كم كنتَ رجلاً بحجمِ الدنيا في ذاكرتِنا، وقلباً طيِّباً لا يعرفُ كيفَ يبخل.

سنةٌ واحدةٌ اختزلَت ما لا تختزلُه سنوات: عرسانِ وموت، فرحٌ ثمَّ حداد، بدايةٌ ثمَّ نهاية. جلستُ مع نفسي طويلاً أُفكِّرُ في هذا التناقُض، حتى أدركتُ أنَّ الأسبابَ لا تصنعُ مساراتِنا بل تُمهِّدُ لها الطريق فحسب، وأنَّ القدرَ يسري في حياتِنا كما يسري الدمُ في العروق: لا يستأذن، ولا يُعلِنُ عن نفسِه، ولا تراه إلَّا بعدَ أن يكونَ قد فعلَ ما جاءَ من أجلِه.

✦ ✦ ✦

الفصل الخامس: عُمَر

قدَري أنا لم أكن أتخيَّلُ يوماً أن يكونَ عُمَرُ ابنُ عمِّي مصلحٍ هو الخيطَ الذي ستنسجُ منه الأقدارُ ما ستنسجُه.

لم تكن علاقتي بأبناءِ عمِّي قريبةً يوماً، إلَّا في تلكَ الطفولةِ البريئةِ التي لم تكن تعرفُ بعدُ أنَّ الحدودَ بينَ البشرِ تُرسَمُ يوماً ما. كنَّا نلعبُ معاً كما يلعبُ الأطفالُ في كلِّ مكانٍ وزمان، لا يرى بعضُنا في بعضٍ إلَّا الأخَ والصديق. ثمَّ جاءَت العاشرةُ وجاءَ معها اللثام. قلَّدتُ أمِّي قبلَ أن أفهمَ لماذا، وأحببتُ التقليدَ قبلَ أن أسألَ عن معناه، وكبرتُ وكبرَ معي حتى صارَ وجهاً من وجوهي لا يحتاجُ تفسيراً ولا يطلبُ إذناً.

ربَّما كانَ الحالُ في زمنِ أجدادِنا مختلفاً. كانَ الناسُ يلتقونَ بعيونٍ لا ترى إلَّا الأخوَّةَ والطهارة، والمرأةُ لم تكن تُخفي وجهَها ولا تشترطُ السوادَ لتكونَ محتشِمة.

حتى أمّي لم تعرِف اللثامَ إلّا متأخِّرةً، كما كانَت تحكي لي بنبرةٍ لا أستطيعُ أن أُحدِّدَ أفيها دفاعٌ أم حنين. لكنَّ الأجيالَ تتوارثُ ما لم تختَره، وتُحِبُّ ما ورِثَته حتى يصيرَ جزءاً من هويّتِها لا تتساءلُ عنه.

وسبحانَ مَن يُخرِجُ الحيَّ من الميّتِ والميّتَ من الحيّ. لم يرِث عُمَرُ من أبيه إلّا حروفَ اسمِه. حادُّ الطِّباعِ كالصَّخر، سيِّئُ الخُلقِ كالريحِ في غيرِ أوانِها، يبحثُ عن المشاكلِ كما يبحثُ العطشانُ عن الماء، ويجدُها دائماً لأنَّه يحملُها في داخلِه أينما حلَّ. كانَت أميرةُ تأتي إلينا وفي عينَيها ما يفيضُ عن طاقةِ الكلامِ على احتوائِه، وكلَّما اشتعلَ بينَه وبينَ أهلِه خلافٌ لاذَ ببيتِنا حتى يُطفئَ إخوتي ما أشعلَه. حينَ زوَّجَه أبوه كانَ أملُ الجميعِ أن يُهذِّبَه الزواج. لم يحدُث ذلكَ قطّ، ولم يكن لِيَحدُثَ لمِن لا يريدُ التهذيب. وحينَ رحلَ عمّي وانتقلَت إليه الأمورُ كلُّها، لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى بدأَ يُحوِّلُ كلَّ شيءٍ إلى سعرٍ وحساب، حتى الماءَ الذي كانَ أبوه يمدُّه إلينا بلا ثمن. وساءَت العلاقةُ بينَه وبينَ إخوتي حتى صارَ اسمُه في البيتِ حجراً يُلقى في الهواء.

لم أكن قد التقيتُ به كثيراً منذُ أن بلغتُ، ولم أكن لأستأثرَ باهتمامِه من الأساس. حتى جاءَ ذلكَ اليوم الذي لم أُخطِّط لشيءٍ فيه.

كنتُ في الدِّيمةِ وحدي، المطبخِ المنفتحِ على الحوشِ الذي يعرفُ أسراري كلَّها. كنتُ أطبخُ والمِذياعُ يُذيعُ أُغنيةً تعرفُها روحي قبلَ أذُنيَّ، فانسابَ صوتي معها وانطلقَت قدماي تُغنّيانِ هي الأخرى بينَ القِدرِ والملعقة، بكلِّ تلكَ الحرّيَّةِ التي لا تعيشُها المرأةُ إلَّا حينَ تتيقَّنُ أنَّه لا عينٌ تراها. ثمَّ أحسَستُ بشيءٍ ما، إحساسٌ غامضٌ بظلٍّ ليسَ من ظلالِ المكان، يمتدُّ من جهةِ البابِ حتى يلمسَ الجدار.

رفعتُ رأسي والتفتُّ.

كانَ واقفاً عندَ البابِ يُراقبُني بعيونٍ لا تستأذِن، منذُ وقتٍ لا أعلمُ مداه.

كانَ عُمَر.

غلى الخجلُ في أعماقي دفعةً واحدة، وتصاعدَ الدمُ إلى وجهي كأنَّه يُعلِنُ ما لم أُقرِّر الإعلانَ عنه. جمَّعتُ ما تبقَّى من رباطةِ جأشي وقلتُ له بصوتٍ أردتُه أهدأَ ممَّا كانَ عليه: أهلاً وسهلاً، تفضَّل ادخُل المنزل. لماذا تقفُ هنا؟

نظرَ إليَّ بتعجُّبٍ لم أستطِع أن أُميّزَ أصادقٌ هو أم اصطِناع: أأنتِ ليلى؟ لقد كبِرتِ سريعاً.

ابتسمتُ.

قالَ وكانَ الصمتُ أجدرَ به من كلِّ ما قال: جئتُ أبحثُ عن محمود. ولكن، والله لو كنتُ أعلمُ أنَّكِ بهذا الجمال، ما رضيتُ إلَّا أن تكوني من نصيبي.

طأطأتُ رأسي دون أن أُجيبَ والدمُ يغزو وجهي موجةً إثرَ موجة. وقلتُ في نفسي بما يعجزُ اللسانُ عن حملِه: بعيدٌ عنك، بعيدٌ عنك كلَّ البُعد. لما رأى احمرارَ وجهي وصمتَ لساني، رسمَ على شفتَيه ابتسامةً ماكرةً كمَن فازَ بشيءٍ لم يستحِقَّه، ثمَّ غادرَ كأنَّه لم يأتِ من الأساس.

لم أُخبِر أميرةَ بما جرى. غيرَ أنَّ ثِقَلَ الصمتِ دفعَني بعدَ يومَين إلى زيارةِ هند صباحاً لأُخبرَها بالحادثة، لكنِّي أبقيتُ كلامَه طيَّ الكِتمان. كنَّا جالستَين في خَلوَتِها حينَ انفتحَ البابُ فجأةً كأنَّ الريحَ دفعَتهُ، واقتحمَ أخوها حسنٌ وهو يصرخ:

أينَ وضعتِ معطفي أيَّتُها ال...

تجمَّدتُ في مكاني. كنتُ جالسةً أمامَ البابِ مباشرةً كهدفٍ لم يقصِدهُ أحد. تجمَّدَ هو الآخر، نظرَ إليَّ وجهاً لا يعرفُه، وأغلقَ البابَ متراجِعاً وهو يقول: العفو، العفو.

خرجَت هندٌ تلحقُ به وتركَتني وحدي. وضعتُ كفَّيَّ على وجهي وقرصتُ نفسي خجلاً وأنا أتساءل: ما الذي تنسجُه الأيَّامُ من حولي؟

عادَت هندٌ وعلى وجهِها ابتسامةٌ ماكرةٌ تعرفُ أكثرَ ممَّا تُعلِن. قالَت: هل تدرينَ أنَّ أخي كادَ يبرَحُني ضرباً على المعطف؟ ثمَّ سامحَني ولا أعرفُ لماذا، وسألَني...

قاطعتُها: لا تُخبريني شيئاً. انسَي ما جرى كلَّه.

ضحكَت وقالَت: الله يستر!

وأتذكرُ تماماً، بعدَ سبعةِ أيَّامٍ من تلكَ الحادثة جاءَت أميرةُ تتسلَّلُ إليَّ كعادَتِها، ولكنَّ وجهَها كانَ يحملُ ما لا تحتملُه اللحظةُ تأجيلاً.

قالَت: أخي عُمَرُ وحسنٌ تشاجَرا.

قلتُ وأنا أكادُ أبتسم: وهل هذا بالشيءِ الجديد؟

نظرَت إليَّ بجدِّيَّةٍ قطعَت الابتسامةَ من منتصفِها: لا يا ليلى. تشاجَرا من أجلِك.

توقَّفَ كلُّ شيءٍ دفعةً واحدة.

أخذَت أميرةُ نفساً وبدأَت: منذُ أن رأى حسنٌ وجهَكِ في بيتِ هند وهو يُلِحُّ على أمِّي أن تتقدَّمَ لخِطبَتِك، يقولُ إنَّه يريدُ الزواجَ ولن ينتظِر. فرِحَت أمِّي وذهبَت تُبشِّرُ عُمَرَ بما قالَه أخوه.

توقَّفَت قليلاً ثمَّ أردفَت: قالَ عُمَر: أيُّ ليلى تتحدَّثينَ عنها؟ لقد تقدَّمتُ لخِطبَتِها من أخيها محمودٍ لنفسي.

لم تدرِ أمُّهما كيفَ تُوصِلُ الخبرَ لحسن، فأوكلَت أميرةَ بالمهمَّة. وفي مساءِ اليومِ التالي، وكانَ عُمَرُ حينَها في بيتِنا يتناولُ الطعامَ معَ أمِّهما، أخذَ حسنٌ يُلِحُّ على أميرةَ أن تُفصِحَ عمَّا تُخفِيه.

قالَت له بلهجةٍ من يُمهِّدُ لصدمة: ما رأيُكَ أن أبحثَ لكَ عن عروسٍ أخرى؟

قالَ: لا أريدُ عروساً غيرَ ليلى.

قالَت: ولكنَّها مخطوبة.

لمن؟

بعدَ صمتٍ طالَ حتى أثقلَ المكانَ، قالَت: لعُمَر.

صرخَ في وجهِها: عُمَر مَن؟

لم ينتظِر إجابةً. انطلقَ يبحثُ عنه، ودخلَ الديوانَ حيثُ كانَ عُمَرُ جالساً أمامَ المائدةِ بهدوءِ مَن لا يتوقَّعُ ما يأتي.

صرخَ حسن: أيُّها الحقير، أنتَ متزوِّجٌ ولكَ أطفال. ماذا تريدُ من ليلى؟

رفعَ عُمَرُ عينَيه إليه بعجرفةٍ وهو لا يزالُ يمضغُ طعامَه: وماذا في ذلك؟ أما يحقُّ لي أن أتزوَّجَ مرَّةً أخرى؟

أقسمَ حسنٌ أن يقتُلَه إن فعَل. فلم يتوانَ عُمَرُ لحظةً، رفعَ السلاحَ الذي كانَ بجانبِه وصوَّبَه نحوَ أخيه، وقالَ بهدوءٍ أقسى وأشدَّ وطأةً من أيِّ صُراخ: سأكونُ قد أعدمتُكَ قبلَ أن تُفكِّرَ في فعلِ شيء. جنَّت أمُّهما وراحَت تصرخُ وتقفزُ في مكانِها حتى هدَّأها حسنٌ وغادرَ وهو يحترقُ من الداخل.

قلتُ لأميرة: أوَّلاً: متى تقدَّمَ لخِطبَتي؟ أخي لم يُخبِرني بكلمة. وثانياً: بعيدٌ عنه كلَّ البُعدِ أن أكونَ زوجةً له. لا بدَّ أنَّه يرى أحلاماً يقظَة.

غادرَت أميرةُ مسرعةً تاركةً خلفَها كلاماً يدورُ في هواءِ الغرفة. توجَّهتُ إلى أخي محمودٍ بصوتٍ لم أُكلِّف نفسي خفضَه.

جاءَت أمّي على أصواتِنا، وقالَت بنبرةِ من يُفسّرُ لا يعتذِر: يا بنيَّتي، ابنُ عمّك. ومن ستجدينَ في هذا الزمانِ أفضلَ منه يحميكِ ويحفَظُك؟

انفجرتُ: لا. هكذا إذن، متّفقونَ على بيعي دون أن تستأذنَ أحدٌ روحي. أعرفُ لماذا، حتى يمدَّ لكم الأنابيبَ ويُسقِطَ الديون. بعيدٌ عنكم جميعاً، لو لم يبقَ رجلٌ على وجهِ الأرضِ غيرَه ما رضيتُ به.

ليسَ في الدنيا أقسى من الدَّين، همٌّ يسكنُ الليلَ ومهانةٌ تُلازمُ النهار. وليسَ في الدنيا أشدُّ من الفقرِ قدرةً على أن يُحوّلَ الإنسانَ إلى سعرٍ في سوقٍ لم يختَر أن يقفَ فيه. أعلمُ أنَّ إخوتي يُحبُّونَني، وأعلمُ أنَّهم رأوا في عُمَرَ المنقِذَ الذي سينتشلُنا من الضّيق. لكنَّ الحبَّ لا يُعطي أحداً حقَّ رسمِ مصيرِ امرأةٍ دون أن يسألَها.

قالَ أخي بصوتٍ صلبٍ كالحجر: لقد انتهى الأمر. ستتزوّجينَ غصباً عنكِ، وإلّا فرصاصةٌ واحدةٌ تنهي كلَّ شيء.

لأوَّلِ مرَّةٍ في حياتي انعقدَ لساني تماماً. نظرتُ إلى أمّي فرأيتُ في وجهِها العجزَ والهلعَ معاً، وهي تُحرّكُ يدَيها نحوي كمَن يريدُ أن يُهدّئَ بحراً هائجاً بكفَّين. تراجعتُ إلى الخلفِ في صمتٍ مشحونٍ وغضبٍ لا تُطفئُه بحارُ الدنيا كلُّها. ثمَّ انهمرَت دموعي، استدرتُ وركضتُ إلى غرفتي وأغلقتُ البابَ على كلِّ شيء.

الفصل السادس: قرارُ مجنون

ضاقَت الدنيا بما رحُبَت في وجهي، وشعرتُ بضيقٍ في صدري كأنَّ أحداً يسكنُه ولا يُريدُ أن يغادر. بكيتُ الليلَ كلَّه حتى نضبَ الدمعُ وبقيَ الألمُ.

أغلقتُ على نفسي يومَين لا أفتحُ البابَ لأحد، ولا أخرجُ إلَّا لضرورةٍ لا تحتملُ التأجيل، وأمِّي تصرخُ من وراءِ الخشبِ كأنَّها تُناجي قبراً: أخرُجي، ستموتين، لا تُمزِّقي قلبي هكذا.

لكنَّني لم أَعُد أسمعُ شيئاً غيرَ ما يدورُ في داخلي. فقدتُ التوازنَ الذي كنتُ أظنُّه جزءاً من تكويني، ولم أَعُد أثقُ بمن حولي ولا بما كنتُ أراه

بالأمس يقيناً. ولا يفقدُ المرءُ توازنَه هكذا إلّا حينَ يشعرُ أنَّه واقفٌ وحيداً في مهبِّ الريح.

فكَّرتُ وفكَّرت، وطالَ بي التفكيرُ حتى أنهكَني. ثمَّ اتَّخذتُ قراري.

قرارُ الغضبِ والكبرياء، قرارُ القهرِ والألم. قرارٌ لا تُمليه الحكمةُ ولا يُسنِدُه العقل، بل تُمليه تلكَ اللحظةُ التي يضيقُ فيها الأفقُ حتى لا تُبصِرَ منه إلّا نافذةً واحدة، فتقفزُ منها دون أن تسألَ ما الذي في الأسفل.

طلبَت أمّي من أميرةَ أن تأتيَ وتُقنِعَني بفتحِ الباب. ولما أقبلَت وأطالَت النداءَ والرجاء، فتحتُ لها وطلبتُ أن تدخلَ وحدَها.

قالَت بنبرةٍ يغلِفُها القلق: ما بالكِ يا ليلى؟ لماذا تتصرَّفينَ هكذا؟

نظرتُ إليها والوهنُ بادٍ على وجهي، ولم أُجِب.

قالَت: قلبي معكِ يا ليلى، صحيحٌ أنَّه أخي، لكنَّني والله غيرُ راضيةٍ عن الوضعِ تماماً. لو تعلمينَ حالَ حسن، ولو تعلمينَ كم بكَت أمِّي من أجلِه.

كانَت تُحاولُ أن تُلَيِّنَ الهواءَ بينَنا، وأنا أنظرُ إليها بعيونٍ ذابلةٍ مليئةٍ بالغضبِ واليأس، لا تعلقُ بي كلمةٌ من كلامِها.

قاطعتُها: لقد اتَّخذتُ قراري يا أميرة.

قالَت: أيُّ قرار؟

قلتُ: سوفَ أهرُب.

صمتَت صمتاً قصيراً كأنَّها تُعيدُ ترتيبَ ما سمعَته.

قالَت: ماذا تقولين؟ هل تدركين ما تقولين؟

قلتُ: نعم، تماماً أدركُ ما أقول.

قالَت: إلى أين؟ وإذا فعلتِها أحلَّ إخوتُكِ دمَك.

قلتُ: يُحِلُّونَ دمي؟ لماذا؟ وهل سأهرُبُ مع رجل؟

قالَت: وما يُدريهم؟

قلتُ: سأهرُبُ إلى عمّي عبدِ الجبَّارِ في العاصمة. وأنتِ ستُخبرينَهم فيما بعد.

قالَت: اعقِلي يا ليلى، هذه مخاطرة، بل انتحار. ماذا لو أمسَكوكِ؟

قلتُ: لم يَعُد الأمرُ يُخيفُني. لا فرق. فأنا في كلِّ الأحوالِ قد صدرَ في حقِّي حكمُ الإعدام.

قالَت: لا أدري ما أقول يا ليلى.

قلتُ: سأهرُبُ بعدَ ثلاثةِ أيّام. ليلاً في الساعةِ الثالثة، من البابِ الخلفي. سأحملُ أوراقي وما يخصُّني وأمشي إلى المدينةِ المجاورة. هل

تتذكَّرينَ مسلسلَ الضحية، تلكَ الأميرةَ التي هرَبَت ودرسَت ثمَّ تزوَّجَت بمن تُحِبّ؟ سأفعلُ مثلَها تماماً.

قالَت: لقد فقدتِ صوابَكِ يا ليلى، هذا الجنونُ بعينِه. سأترُكُكِ الآن، لا طاقةَ لي بسماعِ المزيد. ولا تطلُبي منِّي الصمت، سيقتُلونَكِ. راجِعي نفسَكِ وفكِّري.

لم تكن أميرةُ قد رأَتني يوماً بتلكَ الجِدِّية. خشيتُ أن تشيَ بي، فتظاهرتُ بأنَّها أقنعَتني. وفي صباحِ اليومِ التالي خرجتُ وعلى وجهي قناعُ القبول، وأمامَ الجميعِ كنتُ الفتاةَ التي رضيَت. وفي السرِّ كنتُ أُرتِّبُ ما سأحمِلُه وأُحكِمُ ما سأتركُه. وكنتُ قد بلغتُ التاسعةَ عشرةَ من عمري.

أخذتُ معي مصحفاً صغيراً كانَ دائماً قريباً من يدي، ودفتراً وقلماً وثوبَين وقليلاً من الطعامِ والماء. لا تحتاجُ الروحُ الهاربةُ إلى أكثرَ من ذلك.

حتى جاءَ اليومُ المنتظَر. لم تُغمِض عيناي تلكَ الليلة، وظللتُ ملقاةً في الظلامِ أُحصي أنفاسي حتى بلغَت الساعةُ الثالثةَ بعدَ منتصفِ الليل. حينَ تأكَّدتُ أنَّ النومَ يُثقِلُ كلَّ الأجساد، قمتُ وحملتُ أغراضي. وقفتُ عندَ عتبةِ خَلوَتي ونظرتُ إليها نظرةً أخيرة، نظرةَ من يعرفُ أنَّه لن يعود. أغلقتُ البابَ خلفي بهدوءٍ كهدوءِ من يُودِّعُ دون أن يقولَ وداعاً، ونزلتُ الدرجَ وقدماي تعرفانِ طريقَهما ولو في العَتَمة. اغرورقَت عيناي بالدموع وأنا أمشي، كنتُ أُودِّعُ كلَّ شيءٍ كانَ يوماً ما جزءاً من روحي. وبهدوءِ الليلِ فتحتُ الأبوابَ وخرجتُ إلى الفضاء.

كانَ القمرُ تلكَ الليلةَ مكتملاً، يسكبُ ضوءَه على الأرضِ كأنَّه يُنيرُ لي الطريق. عرفَتني الكلابُ المجاورةُ فأمسَكَت بأصواتِها. واتَّخذتُ طريقي قُدُماً.

ثمَّ فجأةً، في ذلكَ الهدوءِ المخيِّمِ الذي لا يكسرُه إلَّا صياحُ الصَّراصير، امتدَّت يدٌ من خلفِ ظهري وأمسَكَت كتفي بقوَّة.

سقطَ قلبي قبلَ أن تسقطَ قدماي. وكادَ يُغمى عليَّ من الخوف.

التفتُّ ببُطءٍ كمَن يخشى ما سيرى.

إذا بها أميرة.

قلتُ بصوتٍ يكادُ يكونُ همسَ عتاب: أنتِ هنا؟

قالَت: وهل تظنّينَ أنّي سأتركُكِ؟ كل يوم اراقبك ليلا، ولما رايتك الليلة لم تشاهدي التلفاز كعادتك عرفت انه يوم هروبك "

ثمَّ فاجأَتني بما لم أتوقَّعه: أريدُ أنا أيضاً أن أعيشَ في المدينة، وأقتنيَ ما تقتنيه البناتُ في التلفاز.

انفرجَت أساريري وأشرقَ وجهي رغمَ الظلام.

قلتُ: تريدينَ الهروبَ معي إذن؟

قالَت: إذا رجعتِ سأفضحُكِ. إمَّا نرجعُ سويَّةً أو نمضي سويَّة.

رأيتُ في عينَيها تلكَ الرغبةَ الجامحةَ نحوَ المجهول، تلكَ الجذوةَ التي تشتعلُ فيمَن لم تُجرِّب بعدُ طعمَ ما خلفَ الأُفق. ضحكَت وهي تدفعُني لنُواصلَ السيرَ قائلة: لقد تورَّطنا الآن، لم يَعُد أمامَنا التراجُع.

سامِحيني يا أُمِّي. سامِحوني يا إخوتي. لقد خذلتُكم وأنا أعلم، وخرجتُ من بابِكم الخلفيِّ هارِبةً من شيءٍ لم تروا فيه ما رأيتُه أنا. ربَّما صحَوتُم فوجدتُم في غيابي عاراً. لكنَّني كنتُ أُوقِنُ أنَّني ما إن أصلَ إلى عمِّي حتى يصلَكمُ الخبر، وتعلمونَ أنِّي بخير.

كنتُ أمشي وأميرةُ بجانبي وبينَهما شيءٌ من الاطمئنان، ومعَ ذلكَ كنتُ أمشي وأنا أدوسُ على دمعي، أستحضرُ كلَّ ذكرى أشعرُ أنَّها تشدُّني من الخلف. لم أكن أريدُ هذا. لم تكن هذه رغبَتي. لكنَّ القفصَ حينَ يُحكَمُ إغلاقُه، لا يجدُ الطائرُ إلَّا أن يكسرَ قضبانَه أو يذبُلَ خلفَها.

✦ ✦ ✦

الفصل السابع: المتمرِّدتان

تصور إعادة صياغة النص بأسلوب أدبي محسّن وترجمته

يرنُّ الهاتف.

تنتبهُ ليلى الواقفةُ أمامَ النافذة.

يا إلهي، الشمسُ قد أشرقَت. لم يَعُد من الوقتِ إلَّا القليل.

لقد استغرقتُ في تذكُّرِ الماضي حتى نسيتُ أن أستعدَّ لهذا اليوم الذي طالَ انتظاره.

نعم، هذه الشمسُ هي نفسُها تلك. وستظلُّ كما هي. تبدَّلنا نحن وتعاقبَت علينا الأجيال وستأتي أجيالٌ بعدَنا، أمَّا هي فباقيةٌ كالموت، شاهدةٌ علينا جميعاً، جامعةٌ إيَّانا تحتَها سواء.

كانَ في مثلِ هذا الوقتِ حينَ شارفنا أطرافَ المدينة الأولى.

كانَت الحياةُ قد بدأَت تدبُّ فيها. كانَ كلُّ شيءٍ جديداً بالنسبةِ لي، جديداً حتى حدودِ الدوار. بدأتُ أسألُ المارَّةَ عن مكانِ سيَّاراتِ الأُجرةِ المتَّجِهةِ نحوَ العاصمة، وظللتُ أتتبَّعُ اللافتاتِ الملوَّنةَ التي تُشيرُ إلى وجهاتِ كلِّ سيَّارة، حتى وجدتُ ما كنتُ أبحثُ عنه. سألتُ المشرِفَ بلهجةٍ مُحكَمةٍ أنَّني وأختي نودُّ السفر.

خشيتُ أن يسألَني لماذا وإلى أين. ولم يفعل.

استقلَّينا الحافلة. قيلَ لنا إنَّنا سنصلُ العاصمةَ خلالَ أربعٍ إلى خمسِ ساعات، رغمَ أنَّها كانَت من ذلكَ النوعِ الذي يجعلُكَ تتساءلُ كيفَ يصمدُ حتى الآن.

لم أكن قد رأيتُ من قبلُ ذلكَ الزحامَ المثقِلَ بالوجوهِ البائسةِ المنتظِرة. ولم أكن قد تخيَّلتُ ذلكَ الكمَّ من المشرَّدينَ الذين يقفونَ على أطرافِ الحياةِ ينتظرونَ رحمةً لا يعلَمون من أينَ ستأتي، ولا تلكَ المبانيَ النصفَ مولودةٍ التي لا أشجارَ حولَها ولا أثرَ لأيِّ شيءٍ من الحياة. مدينةُ أشباحٍ تسيرُ فيها أشباح. قلتُ في نفسي: أهكذا المدُن؟ قريتُنا أجملُ بكثير.

كانَ الجوُّ بارداً، وكانَ القلقُ قد تمكَّنَ منّي حتى لم أَعُد أُميِّزُ أرتجفُ من البردِ أم من الخوف. كنتُ أتلفَّتُ يميناً ويساراً وأنا أُعدُّ الدقائق،

خائفةً أن يصحوَ إخوتي فلا يجدوني ولا يجدوا أميرة، فيتحرَّكوا في أثرِنا قبلَ أن يتّسعَ الخرقُ بيننا. لم أشعُر في حياتي بثِقَلِ الدقائقِ كما شعرتُ بها ذلكَ اليوم، كأنَّ كلَّ دقيقةٍ تمرُّ تحملُ حجراً يُضاف إلى صدري.

انطلقَت الحافلة. وانطلقنا أنا وأميرةُ نحوَ قدَرٍ لم يكشِف عن وجهِه بعد.

لم أكن أعلمُ أينَ يعيشُ عمّي. كلُّ ما تبقَّى في ذاكرتي من أخبارِه المتناثِرةِ التي كنَّا لا نهتمُّ بها كثيراً، أنَّه موظَّفٌ في وزارةِ الصرفِ الصحّي. موظَّفٌ حكوميٌّ اعتياديٌّ في مدينةٍ لم أعرِفها قبلَ اليوم. وكانَ ذلكَ كلُّ ما أملِكُه.

كنَّا في المقعدِ الخلفيِّ قربَ النافذة، وأمامَنا عائلاتٌ تملأُ الحافلةَ بأصواتِها وأنفاسِها. سرعانَ ما تسلَّلَ النعاسُ إلى أميرة، فأسنَدَت رأسَها إلى كتِفي واستسلمَت. أمَّا عيناي فلم تعرفا هدوءاً، تُحرِّكُهما يميناً ويساراً كأنَّهما تبحثانِ عن خطرٍ لا تُريدانِ أن يُفاجِئَهما. كنتُ أُسبِّحُ اللهَ في سرِّي وأدعوه أن يُهدِّئَ من روعي ويجعلَ ما أُقدِمُ عليه خيراً.

التفتُّ نحوَ النافذة فلم أرَ إلَّا الجبالَ والصخورَ والأرضَ القاحلة. حتى المناظرُ في ذلكَ الفجرِ لم تكن جميلةً بما يكفي لتمنحَني شيئاً من الأمان.

واصلنا السيرَ حتى قطعنا شوطاً كبيراً ومرَّت نحوُ الساعتَين. بدأَت رؤوسُ الركَّابِ تُحني وتميلُ مع تمايُلِ الحافلة، تُسلِمُ نفسَها للنوم. أمَّا رأسي فكانَ ممشوقاً مشدوداً كمن يرفضُ أن يُسلِمَ حِراسَته.

كنَّا قد ارتفعنا فوقَ تلّ.

وفجأةً، في لحظةٍ لم تستأذِن ولم تُحذِّر، شعرتُ بالأرضِ تختفي من تحتِنا ونحن نهوي ونتقلَّب. لم أشعُر بألمٍ ولم أتمكَّن من تفكير. كانَت لحظةً كأنَّها لم تكن، وحينَ كانَت كانَت كلَّ شيء.

مالَت الحافلةُ على صخرةٍ صغيرةٍ لم تكن تستحقُّ كلَّ هذا، وخرجَت عن سيطرةِ السائق. تدحرَجنا في ذلكَ التلِّ الذي لم يكن منخفضاً كفايةً ليوقفَ السقوط. وانقلبَت الحافلةُ تماماً.

لا أزالُ أُوقِنُ أنَّ ذلكَ الشابَّ كانَ هديَّةً أرسلَها اللهُ في الوقتِ المناسِب.

أكبرُ الأخطاءِ تُولَدُ في أحرجِ اللحظات، حينَ يضيقُ أفقُ التفكيرِ وتنعدِمُ الخيارات، كالغريقِ الذي لم يَعُد يُميِّزُ بينَ حبالِ الإنقاذِ وحبالِ الهواء. أصبحتُ وقتَها أتحرَّكُ بغريزةٍ لا بعقل، لا أُفكِّرُ إلّا في أميرةَ وكيفَ أُلمِلِمُ ما تبقَّى، ولو بخطأٍ آخر يُضافُ إلى ما سبَقَه.

وصلنا إلى المركزِ الصحّي. طلبتُ من الشابِّ أن ينتظرَ ريثما أرى حالَ أميرة.

نزلتُ ووجدتُها كما تركتُها، تبكي ألماً لا يعرفُ الصمت.

قلتُ لها: لقد أحضرتُ لكِ المساعدة، سوف ننقلُكِ إلى أقربِ مركزٍ صحّي.

قالَت وهي تتأوَّه: أريدُ العودةَ إلى أهلي.

قلتُ لها بنبرةٍ جمعَت بينَ الحزمِ والحنان: لقد فاتَ الأوان. طلبتُ منكِ من البدايةِ أن تبقَي، وأنتِ التي أصرَرتِ على المجيء. ثقي بي. ستشفَين، ولا رجوعَ الآن.

وأخبرتُها عن الهويَّةِ التي نسجَتها غريزتي في تلكَ اللحظة: سعيدةُ البدويَّةُ صاحبةُ الثأر، وأختُها صفية. كانَت سعيدةُ امرأةً حقيقيَّةً أقامَت عندَنا سنواتٍ طويلة، جوَّابةَ بلادٍ تحملُ ثأرَها وأشعارَها على

كتِفَين لا تتعَبان. كنتُ أُجالِسُها يوميًّاً وأنا أنهلُ من لهجتِها وعاداتِها وحكاياتِها، دون أن أعلمَ يوماً أنَّني كنتُ أستعدُّ لهذه اللحظة.

قالَت أميرة: أنا لا أُحسِنُ التحدُّثَ باللهجةِ البدوية.

قلتُ: تظاهَري بأنَّكِ أقسمتِ ألَّا تتكلَّمي حتى تأخُذي بثأرِ إخوتِكِ. هل فهمتِ؟

طلبتُ من الشابِّ حملَها، وكانَت كلَّما تحرَّكَت ولو قليلاً صرخَت من الألم. ثمَّ أخذتُ أغراضي وانطلقنا.

قالَ الشابُّ بدفءٍ يُنسي التعَب: لا تخافي يا أُختي، دقائقُ ونصلُ المركزَ الصحِّي.

قلتُ: كثَّرَ اللهُ خيرَكَ يا أخي. أعذِر أُختي، فهي أقسمَت ألَّا تتكلَّمَ حتى تأخذَ بثأرِ إخوتِها.

وصلنا أخيراً. تمَّ تشخيصُ أميرةَ بكسرٍ يحتاجُ إلى تجبيسٍ وراحةٍ لا تقلُّ عن أسابيع. وحينَ سألَ الطبيبُ عن اسمِها، قالَ الشابُّ إنَّها أُختُه، يستُرُ علينا دون أن نطلُب.

وحينَ حانَ وقتُ الدفع، أصرَّ هو على أن يتكفَّلَ به. عادَ إلى السيَّارةِ ليأتيَ بمالِه من معطفِه، وتأخَّرَ شيئاً أكثرَ ممَّا كانَ ينبغي. بدأَت الوساوسُ تدبُّ في أوصالي. ثمَّ عادَ، وعادَ معه شيءٌ من الطمأنينة. دفعَ المبلغَ وحملنا أميرةَ إلى السيَّارة.

قلتُ: شُكراً يا أخي، جزاكَ اللهُ كلَّ خيرٍ، سأدعو لكَ في كلِّ صلاة.

قالَ ببساطةِ من لا يرى في فعلِه فضلاً: هذا واجبٌ يا أُختي.

قلتُ: الآن نريدُ أن تأخذَنا إلى أقربِ مكانٍ تجدُ فيه حافلة.

قالَ: وكيفَ ستحمِلين أُختَكِ وهي على هذا الحال؟ لا يجوزُ في عُرفِنا أن أترُكَكِما هكذا. أنتِ ضيفتُنا اليومَ على الأقل، أو حتى تشفى أُختُك.

حاولتُ الرفضَ بكلِّ ما أملِكُه من أسباب، فلم تنفَع. كانَ مُصِرّاً بطريقةٍ لم تُخفِ طيبَتَها. ولم يَعُد في جعبَتي عُذرٌ أختلقُه.

فاستسلمتُ في النهاية.

انطلقنا نحوَ قريتِه وقد أخذَ الطريقُ نحوَ نصفِ الساعة. وفي منتصفِه بدأَت الوساوسُ تعودُ إليَّ بقوَّة: كيفَ وثقتُ به بهذه السرعة؟ لا أعرفُه ولا يعرفُني. وتعرَّقَ الخوفُ في عروقي أكثرَ فأكثر.

حتى إذا شارفنا مشارفَ القرية، رأيتُ ما أسكَتَ الخوفَ مؤقَّتاً:

قصرٌ شامخٌ يطلُّ على قريةٍ صغيرةٍ هادئة، كأنَّه ملَكٌ نزلَ في مكانٍ لم يتوقَّعه أحد.

قلتُ متعجِّبة: ما شاءَ الله، لمن هذا القصر؟

قالَ: منزلُ الشيخ.

قلتُ: وهل والدُكَ هو الشيخ؟

قالَ: أنا في الحقيقةِ يتيم. رحلَ والدي بعدَ ولادتي بوقتٍ قصير. وحينَ بلغتُ الثالثةَ تزوَّجَت أمِّي برجلٍ من قبيلةٍ بعيدة، فربَّتني جدَّتي أمُّ والدي. ولما توفِّيَت وعلمَ الشيخُ بقصَّتي أخذَني تحتَ كنفِه وكانَ ولا يزالُ أكرمَ من يستحقُّ لقبَ العمِّ.

وصلنا إلى البوابة. لم أرَ في حياتي أجملَ منها ولا أكبر. أشعلَ المنظرُ في أميرةَ شيئاً من حماستِها المطفأة، أمَّا أنا فبقيتُ مُتحفِّظةً وراءَ انبهاري.

حرَسٌ بالسلاحِ عندَ البوابة. ديوانٌ فيه رخامٌ وزخارفُ وقمريَّاتٌ ملوَّنةٌ لم تُمرَّ عيناي بمثلِها. ثلاثُ سيِّداتٍ موقَّراتٍ استقبلَننا كأنَّنا ضيوفٌ كنَّ ينتظِرنَهم: زبيدة، وأمُّ أروى، وأمُّ سالم. عرفتُ لاحقاً أنَّهنَّ زوجاتُ الشيخ.

قالَت الأولى بترحيبٍ صادق: أهلاً وسهلاً، البيتُ بيتُكنّ.

قلتُ: حيَّاكمُ الله، كلُّه من طيبِ أصلِكم.

قالَت: يبدو من كلامِكِ أنَّكنَّ بدو؟

قلتُ: أجل، نحنُ كذلك.

قالَت: اللهُ يستُر عليكنّ.

قالَت الثانية: لم تعرِّفيننا على أسمائِكنّ، ثمَّ انزَعنَ اللثامَ كي نتعرَّفَ عليكنّ.

قلتُ بهدوءٍ لا يُخطِئُ الهدف: نحنُ البدوَ لا ننزعُ اللثامَ إلَّا أمامَ أزواجِنا. أنا اسمي سعيدة، وأُختي صفية.

قالَت الثالثة: اللهُ يشفيكِ يا صفية.

قلتُ: أعذِروها، أقسمَت ألَّا تتكلَّمَ حتى تستردَّ حقَّ إخوتِها.

وبينَما نحن في ذلكَ طرقَ البابَ محمدٌ وأبلغَنا أنَّ الشيخَ مطهَّراً يودُّ أن يُقابِلَنا. ارتعدَت أوصالي وأنا أتظاهرُ بالصلابة. لم يسعني الرفض.

ولكنَّ ما جرى كانَ أشدَّ وقعاً ممَّا توقَّعت. استمعَ الشيخُ إلى قصَّتي الوهميَّةِ بعيونٍ واسعة، وأبدى إعجابَه بصغرِ سنِّنا وقوَّةِ عزيمتِنا. وطلبَ منَّا البقاءَ حتى تشفى صفية، ووعدَنا بالمساعدةِ بما يستطيع. وكادَ بعضُ كذِبي يصيرُ في وجدانيَ حقيقة.

مُدَّت السُّفُرةُ في الديوانِ الكبير. أكلَنا اللحمَ والعصيدَ والأرزَ والحلويات، وشبِعنا شِبَعَ من لم يأكُل منذُ وقتٍ طويل. ثمَّ أُرشِدنا إلى جناحٍ مُعَدٍّ لنا، خَلوَتانِ وحجرةٌ وحمَّامٌ وبرَندةٌ مطلَّةٌ على الحوش. وعلى الطاولةِ فواكِهُ وحلويَّاتٌ كأنَّهم يعرفونَ متى يأتي الضيف.

حينَ دخلنا كادَت أميرةُ أن تطيرَ من الفرحِ لولا أنَّ ساقَها أرسَت ما رفعَه قلبُها. ثمَّ التفتَت نحوي والطعامُ يملأُ فمَها.

قالَت: اسمَعي يا ليلى، صحيحٌ أنَّه كانَ قراراً خاطئاً حينَ طلبتُ المجيءَ معكِ، ولكنَّ ما جرى جرى. أنا لن أستطيعَ السفرَ معكِ غداً.

قلتُ وقد استفزَّني خبرُها: ماذا؟ هل جننتِ؟ هل تريدينَ البقاء؟ بأيِّ صفةٍ على وجهِ الأرض؟

قالَت: بصفتي البدويَّةَ صفيَّةَ التي انكسرَت قدمُها وتحتاجُ إلى وقت.

قلتُ: وماذا لو انكشفَ أمرُنا؟

قالَت: لن ينكشِف. نبقى أيَّاماً قليلةً حتى تشفى ساقي. ومَن يدري، ربَّما وجدنا هنا زوجَ الأحلام. وغمزَتني بعينٍ لا تزالُ تعرفُ كيفَ تضحَك.

وما الذي كانَ يسعُني فعلُه؟ لو بقَينا أكثرَ ممَّا ينبغي بدأَ الشكُّ يدبُّ. ولو غادرتُ وحدي فضحَتني. فقرَّرنا البقاء.

وهكذا مضَت أربعةُ أيَّامٍ في ظلِّ تلكَ الضيافةِ الكريمة.

لاحظتُ اختلافاً خفيَّاً في بعضِ العاداتِ واللهجة، اختلافٌ لا يصرُخُ بل يُهمِسُ لمن يُحسِنُ الاستماع.

وبعدَ العصرِ من كلِّ يوم، تبدأُ النساءُ بالتجمُّعِ في منزلِ الشيخ. تصيرُ الجلسةُ دوَّامةً من الثرثرةِ الدافئةِ التي تتناوَلُ أخبارَ الجميع؛ فلانةٌ حانقة، وفلانةٌ انفصلَت، وفلانةٌ بها علَّة. تخوضُ النساءُ في

كلِّ شاردةٍ وواردةٍ كأنَّهنَّ يُدِرنَ القريةَ بألسِنَتِهن. وربَّما كنَّ كذلكَ فعلاً، إذ لا بدَّ أنَّ حديثَهنَّ يتسرَّبُ إلى قراراتِ الرجالِ في نهايةِ المطاف. وتظلُّ أكوابُ القهوةِ والشاي تدورُ في المجلسِ كأنَّها هي الأُخرى جزءٌ من الحديث.

أمَّا الرجالُ فيجتمعونَ في الديوانِ يتداوَلونَ شؤونَ القريةِ وهمومَها. وتتدخَّلُ في حديثِهم أصداءُ ما دارَ في مجلسِ النساء، وكأنَّ ما يُقرَّرُ في النهايةِ ليسَ إلَّا انعكاساً لما اختمرَ أوَّلاً في تلكَ الجلسةِ الأُنثويَّةِ الدافئة.

وحينَ يُؤذِّنُ المغرب، يعودُ كلٌّ إلى بيتِه. وهكذا تمضي الأيَّام، منظَّمةٌ كأنَّها كتبَت نفسَها.

✦ ✦ ✦

الفصل الثامن: انكشافُ الأسرار

:آلو؟

قالَت آمنة: يا ليلى، الساعةُ الثامنة. ألن تنزِلي من أجلِ الفطور؟ كما تعلمين سيأتي ضيوفُنا في أيِّ وقت، يجبُ أن نتحدَّثَ عن كيفيَّةِ استقبالِهم.

قالَت ليلى: لم أنَم منذُ الثالثةِ بعدَ منتصفِ الليل. سأنزلُ حالاً.

يا لآمنة. الصديقةُ الصدوق. صداقتُها أجملُ هديَّةٍ وهبَها اللهُ لي دون أن أطلُب.

حينَ يُخالطُ الإنسانُ البشرَ يتيهُ في رموزِ شخصيَّاتِهم ومتاهاتِ مشاعِرهم. وكلَّما بحثَ عمَّن يمنحُه ثقتَه ويردُّها إليه، جاءَت الأيَّامُ لتُثبتَ أنَّ كلَّ إنسانٍ لا يُجيدُ في النهايةِ إلَّا صقلَ قوقعتِه وإحكامَ قناعِه في اللحظةِ المناسبة. لذا أعتبرُ الصداقةَ الخالصةَ كالعُملةِ النادرة، قلَّ من يجدُها وأقلُّ من يعرفُ قيمتَها.

مضَت أربعةُ أيَّامٍ ونحنُ في منزلِ الشيخ، نحظى بترحيبٍ لا يكلُّ وضيافةٍ لا تتوقَّف. وتعرَّفتُ خلالَها على نسائِه، وكلُّ واحدةٍ منهنَّ كتابٌ مفتوحٌ على الصمتِ والمكابَدة.

زبيدة: امرأةٌ قليلةُ الكلام، لا أراها إلَّا متجهِّمةَ الوجه، وإذا ضحكَت كانَت ضحكتُها ابتسامةً خفيفةً جانبيَّةً كأنَّها تُسرِّبُها من طرفِ فمٍ لا يريدُ أن يُعطيَ أكثرَ ممَّا يجِب.

أمُّ أروى: حلوةُ اللسانِ كثيرةُ الكلامِ والترحيب، لكنَّ في كلامِها شيئاً يُشبهُ الصابونَ الناعم، تمسكُه فيزلُق. ولها بناتٌ مزاجيَّات، أكبرُهنَّ أروى التي قيلَ لي إنَّها تدرسُ الطبَّ في العاصمةِ ولا تعودُ إلَّا في الإجازة. نادراً ما التفتَت إلينا بناتُها أو منحنَنا شيئاً من الاكتراث.

أمُّ سالم: صغيرةُ السنِّ، في العشرينَ أو ما يقاربُها. جميلةٌ جمالاً تعلوه مسحةٌ من الحزنِ الهادئ كأنَّه قديمٌ فيها وقد ألِفتهُ. كانَت الأكثرَ لُطفاً معي من بينِ الجميع.

تزوَّجَ الشيخُ ثلاثَ نساء: الأولى لم تنجِب، والثانيةُ لم تنجِب إلَّا بناتٍ وله منها ستٌّ، فجاءَت الثالثةُ التي وهبَت له ابناً واحداً بعدَ ثلاثِ بنات، ولا يزالُ الولدُ صغيراً يتعلَّمُ كيفَ يقفُ على قدمَيه.

وفي الليلةِ الرابعة، حينَ أرَّقَني ضيقُ الصدرِ وخرجتُ إلى البرَندةِ أستنشقُ ما تبقَّى من هواءِ الليل، فاجأَني صوتٌ قريبٌ لم أتوقَّعه:

سبحانَ اللهِ، ما أجملَ الليلَ إذا اكتملَ قمرُه.

كانَ محمدٌ يُطِلُّ بأعلى جسدِه من النافذةِ المجاورة، عيناه في القمرِ لا فيّ.

قلتُ بتعجُّب: محمد؟

قالَ: أجل.

لأوَّلِ مرَّةٍ تمكَّنتُ من التأمُّلِ فيه دون عجَلة. لأوَّلِ مرَّةٍ لاحظتُ كم كانَ جميلَ القامةِ والملامح. وشعرتُ برغبةٍ غريبةٍ في أن يطولَ وقوفُه هناك وأن يمتدَّ الحديث.

ثمَّ فجأةً نادَت أميرةُ من الداخل: مع من تتحدَّثين؟

ارتعبتُ. قلتُ له بسرعةٍ إنَّها لا بدَّ تهذي في نومِها. استأذنتُه وأخبرتُه أنَّه حانَ موعدُ النوم.

دخلتُ عليها وقلتُ: هل جننتِ؟ تتكلَّمين وأنتِ تعلمين أنَّني في البرَندة. لو سمِعَكِ أحدٌ لانكشفَ كلُّ شيء.

قالَت: حسناً، أنا وافقتُ أن أصمُت، لكن حتى في خَلوَتي؟

شرحتُ لها أنَّ خَلوَةَ محمدٍ بجوارِنا تماماً وله نافذةٌ تُطِلُّ على البرَندة. وأقنعتُها بالصبرِ حتى نرحَل.

وهكذا بدأنا نتبادلُ الأحاديثَ كلَّ ليلة. حدَّثَني عن طفولتِه القاسيةِ وعن دراستِه في علومِ التربة. وكانَ يتعجَّبُ من أفكاري ويتساءلُ كيفَ لبدويَّةٍ أن تحملَ هذه

الرُّؤى. وكنتُ أشعرُ بالذنبِ وأنا أُجيبُه باسمٍ ليسَ اسمي، وبهويَّةٍ نسجَتها الضرورةُ لا الحقيقة.

حتى جاءَ ما لم أحسِب له حساباً.

في إحدى الليالي رأيتُ أروى، ابنةَ أمّ أروى، تُفتِحُ خَلوَةَ خالتِها بمفتاحٍ لا أدري من أينَ جاءَت به، وتخرجُ وبيدِها كيسٌ تتسلَّلُ به في الظلام. جفَّت عروقي من هولِ ما رأَت عيناي.

شيءٌ ما دفعَني دفعاً نحوَ نافذةِ محمد. طرقتُها مرَّةً ومرَّتَين وثلاثاً حتى فتحَها.

قلتُ: مساءُ الخير.

قالَ: مساءُ النور.

قلتُ: واللهِ ما هو خير.

قالَ: لماذا؟

قلتُ: واللهِ لن أقولَ لكَ إلَّا الحقَّ، وليقطَع اللهُ لساني إن أخطأَت كلمة.

قالَ: ماذا هنالك؟

قلتُ: أريدُ الأمانَ أوَّلاً.

قالَ: لكِ منّي الأمان.

أخبرتُه بما رأيتُ ودموعي تُسابقُ كلماتي. طمأَنني وقالَ ألَّا أقلَق وأنَّه سيعرفُ كيفَ يتصرَّف. طلبتُ منه ألَّا يُخبرَ أروى بأنَّني من أخبرَه. وبقيَ يُطمئنُّني حتى هدأَ قلبي. وقالَ ألَّا أفعلَ شيئاً حتى يُشيرَ هو عليّ.

وجاءَ الصباحُ ولم أنَم منه ساعةً واحدة.

مضى اليومُ الأوَّلُ بكلِّ ثقلِه وأنا أُراقبُ كلَّ من في المنزلِ بعيونٍ تُحاولُ أن تفكَّ ما خلفَ الملامح. ولم يظهَر محمد.

ومضى اليومُ الثاني وقلبي ينتظرُ ما لا يأتي، وانقضى وأنا أُحصي ساعاتِه واحدةً واحدة.

ثمَّ في الليلِ طرقَ طارقٌ بابَ الحجرة. توجَّهتُ بحذَر.

قلتُ: من هناك؟

قالَ الصوت: أنا أمُّ سالم.

فتحتُ الباب. دخلَت وعلى وجهِها هدوءٌ يُشبهُ الثقةَ أكثرَ ممَّا يُشبهُ الطمأنينة.

قالَت: كيفَ حالُكِ يا سعيدة؟

قلتُ: الحمدُ لله. خير؟

قالَت: خيرٌ إن شاءَ الله. جئتُ فقط لأُخبرَكِ أنَّني واثقةٌ تماماً من مصداقيَّتِكِ. فلا تحزَني.

ثمَّ قالَت إنَّها يجبُ أن تذهبَ في الحالِ قبلَ أن يراها أحد، وخرجَت كما جاءَت، تاركةً في المكانِ سؤالاً لا تُجيبُ عنه إلَّا ليلةٌ أخرى.

وما كانَ إلَّا أن ناداني محمدٌ من البرَندة. أسرعتُ إليه.

أخبرَني أنَّنا سنرحلُ غداً وأنَّه سيأخذُنا بنفسِه إلى المدينة، وأنَّ البقاءَ أكثرَ سيُورِّطُنا في ما لا طاقةَ لنا به. وقد أخذَ الإذنَ من عمِّه الشيخ.

سألتُه عن أروى وعن أمِّ سالم. قالَ إنَّه سيُخبرُني بكلِّ شيءٍ في الطريق، وأن نبدأَ الاستعدادَ أنا وأميرة.

ساقُ أميرةَ لم تجبُر بعدُ كاملاً. لكنَّها كانَت الفرصةَ التي انتظرتُها منذُ البداية، فلم أتردَّد.

وجاءَ اليومُ التالي ونحنُ على أتمِّ الاستعداد. كانَ الوداعُ أدفأَ ممَّا توقَّعت. وهبَ لنا الشيخُ مبلغاً من المالِ يكفي حاجتَنا حتى نهايةِ السنة، كرمٌ لم نطلُبه وأخجلَنا قبولُه. وحينَ صعدنا إلى السيَّارة، نظرتُ حولي نظرةً أخيرةً ودَّعتُ فيها المكانَ والزمانَ معاً.

انطلَقنا. والشمسُ لا تزالُ في أوَّلِ نهارِها، شاهدةً على جُرأةٍ لم أكن أعرفُ أنِّي أملِكُها.

غشيَتنا السكينةُ بعدَ انطلاقِنا، وكنتُ أكثرَ اطمئناناً ممَّا كنتُ عليه منذُ وقتٍ طويل. حتى إذا قطعنا شوطاً كبيراً لم أتحمَّل الصمتَ أكثر، فبدأتُ أطرحُ على محمدٍ الأسئلةَ التي ظلَّت تدورُ في رأسي: ما الذي أخذَتهُ أروى من خَلوَةِ خالتِها؟ وكيفَ استردَّتهُ أمُّ سالم؟ ولماذا جاءَت تلكَ الليلةَ لتقولَ لي ما قالَت؟

أخبرَني محمدٌ أنَّ أروى سرقَت مجوهراتِ خالتِها من الذهب. وقد تفاهمَ مع أمِّ سالمٍ على أن يردَّ لها حقَّها ولو باعَ كلَّ ما يملِك، على أن تصبرَ ولا تُثيرَ شيئاً لأنَّ الأمرَ قد ينقلبُ علينا نحنُ ويُفضي إلى اتِّهامِنا.

قلتُ: وهل استطعتَ أن تردَّ المجوهراتِ إليها؟

قالَ: نعم.

قلتُ: وكيف؟

قالَ: توجَّهتُ نحوَ أروى وأخبرتُها بأنَّني رأيتُها تلكَ الليلة، بنفسِ الوصفِ الذي أعطيتِني إيَّاه. تلعثَمَت وأحمرَّ وجهُها واشتغلَت بالإنكار. حاصرتُها بأسئلةٍ لم تتركها مُتنفَّساً حتى اعترفَت. قالَت إنَّها فعلَت ذلكَ عن سابقِ قصدٍ لتورِّطَنا.

قلتُ: تورِّطُنا؟ ولماذا؟

قالَ بتردُّدٍ خفيف: قالَت... إنَّها الغيرة.

الغيرة.

فهمتُ منه أنَّها كانَت مُعجبةً به إعجاباً بلغَ حدَّ التعلُّق، حتى رفضَت كلَّ من تقدَّمَ لها من أجلِه. وحينَ بدأَت تلحظُ أنَّ اهتمامَه يتوجَّهُ نحوَنا، وحينَ سمعَت في إحدى الليالي خيطاً من حوارِنا، قرَّرَت أن تُوقِفَ ما لا تستطيعُ إيقافَه بطريقةٍ أخرى. واختارَت خالتَها التي تكرهُها أيضاً، فكأنَّها أرادَت أن تشفيَ غليلَين بضربةٍ واحدة.

قلتُ: وما الذي جعلَ أمَّ سالمٍ تأتي لي بتلكَ الكلمات؟

قالَ إنَّها ذهبَت تبحثُ عن يقينٍ لا تجدُه بطريقةٍ اعتياديَّة. توجَّهَت إلى مشعوذٍ تعرفُه نساءُ القرية، يعملُ بالأسحارِ وفكِّها. طلبَ منها أن تجلبَ طفلاً لم يبلُغ الحُلُمَ ولا يعرفُها. وحينَ بدأَ الرجلُ بالقسَم وطلبَ من الطفلِ أن يُغمِضَ عينَيه، بدأَ الطفلُ يصفُ امرأةً تدخلُ خَلوَةَ خالتِها، حتى انه ذكر اسمها ووصفَ طريقةَ دخولِها بدقَّةٍ مُقلِقة، رغمَ أنَّه لا يعرفُ أروى ولا يعرفُ المكان.

اقشعرَّ جلدي وأنا أسمعُه. تبدو الحكايةُ كحكاياتِ الجدَّاتِ في الليالي الطويلة.

قلتُ: وماذا تُسمَّى هذه الطريقة؟

قالَ: المندَل.

صمتُّ في نفسي وحمدتُ اللهَ على مقاديرِه التي تعملُ في الخفاءِ وتُنقذُ من لا يعلمُ أنَّه كانَ في خطر.

كانَت الرحلةُ هادئةً بما يكفي لأن تُفكِّر. وحينَ لم يَعُد يفصلُنا عن المدينةِ إلَّا دقائق، أوقفَ محمدٌ السيَّارةَ فجأةً وأطلَّ علينا بسؤالٍ لم نعمل له حساباً.

قالَ: قبلَ أن نصل، أريدُ أن أعرفَ أينَ ستنزلِن؟

صمتُّ قليلاً ثمَّ قلتُ: ما أعرفُه أنَّ هناكَ أماكنَ تُسمَّى فنادقَ نستأجرُ فيها ما نحتاج.

قالَ: أنتِ لا تعرفينَ شيئاً عن المدن. لقد استأجرَ لي عمِّي شقَّةً في السكنِ الجامعي. ابقَيا هناكَ حتى تجِدا عمَّكِ، وأنا سأسكنُ مع زميلٍ لي في الشقَّةِ المجاورة.

قلتُ: هذا كرمٌ منكَ أكبرُ ممَّا ينبغي، ولكن...

قالَ: هناكَ شيءٌ يجولُ في خاطِري. أريدُكِ أن تُصارِحيني بصدقٍ كامل.

شعرتُ بشيءٍ يشتعلُ في صدري فجأةً.

قلتُ: لقد أخفتَني. ماذا هنالكَ يا محمد؟

قالَ: هل تتذكَّرينَ حينَ ذهَبنا إلى المركزِ الصحِّي من أجلِ أُختِك؟

قلتُ: نعم.

قالَ: حينَ عُدتُ إلى السيَّارةِ لأجلبَ المالَ من معطفي، وقعَت أغراضُكنَّ ورأيتُ صوراً وأوراقاً تعريفيَّة لكنَّ...

خيَّمَ الصمت. ذلكَ الصمتُ الذي يعرفُ كيفَ يكونُ أثقلَ من أيِّ كلام.

أدركتُ حينَها لماذا تأخَّرَ ذلكَ اليومَ رغمَ أنَّ السيَّارةَ لم تكن بعيدة.

قلتُ: تقصدُ أنَّكَ تعرفُ من نحنُ حقًّا منذُ البداية؟

قالَ: نعم. ولكن ما قصَّتُكنَّ الحقيقية؟

لم أشعُر إلَّا بأميرةَ تئنُّ وتبكي بحُرقة، ودموعي تُسايرُها وأنا أُحاولُ التماسُكَ دون جدوى. وبقيَ محمدٌ يُطمئنُّنا حتى هدأنا.

وحينَ عادَ الهدوءُ، لم أجِد أمامي إلَّا المواجَهة. فأخبرتُه بقصَّتِنا كاملة، لم أُخفِ شيئاً ولم أُزيِّن شيئاً.

وحينَ انتهيتُ لم يُعقِّب ولا بكلمةٍ واحدة. وانطلَقنا في صمتٍ كانَ له وزنُه الخاصّ.

كنتُ حزينةً وأشعرُ بالذنبِ والخجلِ معاً. وأميرةُ بجانبي تُبادلُني نظراتٍ لا تعرفُ هي الأخرى ما تقول. همسَت في أُذُني:

ليلى، أخافُ أن يوشيَ بنا. أخافُ أن يُؤذيَنا.

قلتُ: على اللهِ يا أميرة. لقد وعدَنا ولا نملكُ الآنَ إلَّا التصديق.

قالَت: كيفَ استطاعَ طوالَ هذا الوقتِ أن يتظاهرَ بتصديقِنا؟ ما الذي يُحدِّثُ به نفسَه الآنَ عنَّا؟

وكانَ صمتُه يخنقُنا، والوقتُ يزحفُ بثِقَلِه فوقَ صدورِنا، والطريقُ يمتدُّ ولا يُريدُ أن ينتهي.

ووصلنا إلى المدينة.

تجلَّت لنا كنافذةٍ من الضوءِ بعدَ ليلٍ طويل. كلُّ شيءٍ يلمعُ وبقوّة. لكنَّ المناظرَ لم تكن قادرةً على أن تُشغلَنا عن محمدٍ وعمَّا يدورُ خلفَ صمتِه. تبادَلنا النظراتِ في صمتٍ.

لكنَّ أميرةَ لم تصبِر أكثر.

قالَت: وبعدَ أن عرفتَ قصَّتَنا، ما الذي ستفعَلُه؟

قالَ: لا شيء. لقد وعدتُكنَّ بالمساعدةِ ويجبُ أن أوفيَ بعَهدي.

لم أشعُر بالراحةِ الكاملة. هل فقدَ ثقتَه بنا؟

لاحظَ قلقي.

قالَ: اسمَعن. رغمَ أنَّ الهربَ لم يكن الخيارَ الصحيح، لكنَّني لن أتنازلَ عن وعدي. لو كنتُ مكانَكنَّ لفعلتُ ذاتَ الشيء.

اطمأنَّ قلبي قليلاً.

ولم يكن أمامي إلَّا أن أُصدِّقَه .

الفصل التاسع: ورطةُ الحُبّ

تصور إعادة صياغة النص وترجمته

حينَ وصلنا إلى المدينةِ كانَت الحياةُ تبدو مختلفةً من كلِّ شيء، كأنَّ العالَمَ هنا يعيشُ بإيقاعٍ لا تعرفُه القرى ولا تُطيقُه. كلُّ شيءٍ يلمعُ وبقوَّة، وكلُّ شيءٍ أعلى صوتاً وأسرعَ خطىً وأكثرُ ممَّا اعتادَت عليه أعصابُنا في هدوءِ قريتِنا.

أقمنا في الشقَّةِ التي وعدَنا بها محمد. وأبقَينا أميرةَ فيها بسببِ رجلِها. وفي اليومِ التالي شرعنا أنا ومحمدٌ في البحثِ عن عمِّي في وزارةِ الصرفِ الصحِّي، من مكتبٍ إلى آخر، ومن موظَّفٍ إلى موظَّف. لم نتركِ اسماً دون أن نسألَ عنه، ولم نتركِ باباً دون أن نطرُقَه. لكنَّنا لم نجِد له أثراً، حتى اسمَه لم يكن ضمنَ ملفَّاتِ الموظَّفين. وعلى الرغمِ من تلكَ الصعوباتِ، لم أَسمَح لليأسِ يوماً أن يجدَ طريقاً إلى قلبي. كنتُ واثقةً أنَّنا سنجدُه، وكانَت تلكَ الثقةُ وحدَها ما يُبقيني واقفة.

خلالَ تلكَ الأيَّامِ الطويلةِ كانَ محمدٌ بجانبي في كلِّ خطوة، يذهبُ ويجيءُ دون كَلَل، يسألُ ويتقصَّى دون مَلَل، يقفُ أمامي حاجزاً بينَ الزحامِ وبيني حينَ تضيقُ الشوارعُ بأجسادِها. وكلَّما رأيتُ صدقَه واجتهادَه أعجبتُ به أكثر، حتى بدأتُ أشعرُ بشيءٍ يتشكَّلُ في صدري نحوَه، شيءٌ أكبرُ من الإعجابِ وأهدأُ منه. ربَّما كانَ الحبُّ يتسلَّلُ إليَّ كما يتسلَّلُ الضوءُ من تحتِ الباب، دون أن تسمعَه قدماك.

وفي تلكَ الأيَّامِ تعرَّفتُ على آمنة. امرأةٌ في مقتبلِ العمرِ تمرُّ بشقَّتِنا كلَّ يوم، تحملُ خبزاً صنعَتهُ يداها وتبيعُه لطلَّابِ السكن. قالَت لي اسمَها في أوَّلِ لقاءٍ بيننا بنبرةٍ من لا تحتاجُ إلى تقديم.

نعم، إنَّها آمنة. صديقتي التي تنتظرُني الآنَ في الأسفل.

آمنةُ جميلةٌ وذكيَّة، ظلمَها القدرُ أكثرَ ممَّا تستحق. زوَّجَها والدُها برجلٍ أجنبيٍّ من دولةٍ مجاورة، رجلٌ دفعَ مهرَها بالملايينَ وأقامَ عُرسَها بالملايين، فظنَّ والدُها أنَّه يُسلِّمُها إلى أمانٍ لن تُشقيَها الأيَّام. لم يُكمِلِ العريسُ أشهُرَه الأولى حتى ترَكَها ورحلَ إلى بلدِه كأنَّها كانَت محطَّةً لا وجهة. لم يُخلِّف لها عنواناً ولا خبراً ولا طريقاً يُوصِلُها إليه. حملَت منه وأنجبَت طفلةً تبلغُ الآنَ السابعةَ من عمرِها.

رحلَ والدُها. تقاسمَ إخوتُها الأرضَ الخصيبةَ فيما بينَهم، وتركوا لها ولأمِّها وأختِها وابنتِها أرضاً واسعةً لا تُنبِتُ شيئاً ولا تقبلُ بئراً، أرضٌ يرى الإنسانُ فيها اليأسَ

قبلَ أن يرى التُّرابَ كما قالَت لي. وحينَ تزوَّجَ إخوتُها صارت هي وأمُّها خادمتَين بلا أُجرة، إلَّا من أخٍ صغيرٍ حفظَ لها شيئاً من كرامتِها. فقرَّرَت أن ترحلَ إلى المدينةِ بأمِّها وابنتِها وأختِها وذلكَ الأخِ الصغير، عسى أن يتعلَّمَ ويكونَ ما لم يكنه غيرُه.

ومنذُ ذلكَ اليومِ وآمنةُ تعجنُ وتخبزُ وتبيع.

أحببتُها بقوَّةٍ لم أتوقَّعها. أحببتُ لُطفَها وطيبتَها وذلكَ الجمالَ الذي تذيبُه المعاناةُ ولا تقدرُ على إطفائِه. كانَت تمرُّ بنا كلَّ مساء، ونجلسُ حتى تضيقَ الكلماتُ عن احتمالِ ما نقوله. حكيتُ لها قصَّتَنا كلَّها، والهربَ وكلَّ ما قبلَه.

وفي أحدِ الأيَّامِ أخذَتني إلى منزلِها. عرَّفَتني على أمِّها وأختِها في مكانٍ يتوارى بينَ دهاليزِ تلكَ الأحياءِ المحطَّمة التي يسكنُها فقراءُ الناسِ بصمتٍ كأنَّهم يعتذرونَ من حياةٍ لم تدعُهم. طبقةٌ كادحةٌ تتألَّمُ بصمتٍ وتموتُ بصمت. البردُ في الشتاءِ عدوُّهم الأوَّل ثمَّ الجوعُ ثمَّ المرض. ناسٌ لا قبيلةَ تحميهم ولا صوتَ يُنصِفُهم، والغبنُ يجلسُ فوقَهم ملِكاً لم يُنتخَب.

وهكذا مضَت الأيَّامُ تتراكمُ حتى صارَت أشهُراً، ونحنُ نتنقَّلُ من مكتبٍ إلى مكتبٍ أنا ومحمد، وأنا أُسابقُ الوقتَ لأنَّ كلَّ دقيقةٍ تمرُّ هي ضياعٌ يُضافُ إلى ما سبقَه.

بدأَت المدارسُ والجامعاتُ تفتحُ أبوابَها، وانشغلَ محمدٌ بدراستِه، فبدأتُ أنتظرُ الفراغاتِ في يومِه لنُواصلَ البحثَ معاً. كنتُ أعودُ إلى الشقَّةِ في المساءِ وقد انتهكَني التعب، أحملُ الغداءَ بيدٍ وخيبةَ اليومِ بالأخرى. وكانَت أميرةُ تنتظرُني بفارغِ الصبرِ تريدُ بشرى. فتستقبلُني مبتهجةً وأُقابلُها بوجهٍ عابسٍ فتُغلقُ الباب خلفي في صمتٍ يعرفُ كيفَ يُؤلِم.

وفي أحدِ الأيَّامِ عادَ محمدٌ وفي يدِه شيءٌ لم يسبِق أن امتلكتُه في حياتي. مدَّ يدَه نحوي.

قالَ: هذا لكِ. ولأميرةَ واحدٌ مثلُه.

كانَ هاتفاً.

أمسكتُه بأصابعَ لا تعرفُ كيفَ تُمسِكُه. جهازٌ صغيرٌ أملسُ باردٌ يلمعُ في راحتي كأنَّه قادمٌ من عالمٍ لم أُدعَ إليه بعد. قلَّبتُه يميناً ويساراً وأنا أنظرُ إليه كمن يُحاولُ أن يفكَّ رموزَ شيءٍ لا يملكُ مفتاحَه.

قلتُ: ولماذا؟

قالَ وعلى وجهِه ابتسامةٌ لا تُشبهُ التفسير: لأنَّني لستُ دائماً معكنَّ، ولا يُريحُني أن لا رابطَ يجمعُنا.

جلستُ أتأمَّلُه طويلاً. رأيتُ الهاتفَ من قبلُ في التلفاز، ورأيتُ الناسَ في المدينةِ يحملونَه كامتدادٍ طبيعيٍّ لأيديهم. لكن أن يكونَ بيدي أنا، بيدِ ليلى التي لم تعرِف في حياتِها إلّا الآبارَ والتنّورَ وصياحَ الديك، فذلكَ أمرٌ آخر تماماً.

دخلتُ على أميرةَ أُريها إيّاه فأضاءَت عيناها بنورٍ لم أرَه فيها منذُ وقت.

قالَت وهي تختطفُه من يدي: أعطيني أنظُر.

قلتُ: لكِ واحدٌ مثلُه.

ابتهجَت ابتِهاجاً أنارَ وجهَها الذي كانَ قد انطفأَ منذُ فترةٍ لم نُعلِن عنها.

لم يكن مجرَّدَ هاتف. كانَ أوَّلَ شيءٍ أملِكُه أنا وأميرةُ لم يُورَث ولم يُفرَض، بل أُعطيَ بلا شرطٍ ولا ثمن. وكانَ ذلكَ بحدِّ ذاتِه شيئاً لم تتعوَّد عليه روحي.

وفي يومٍ من تلكَ الأيّام، حينَ كنتُ أظنُّ أنّني بدأتُ أتعلَّمُ كيفَ أُواجِهُ الصعاب، عُدتُ فوجدتُ أميرةَ تبكي. أسرعتُ إليها.

قلتُ: ما بالكِ يا أميرة؟ لماذا هذا البكاءُ الآن؟

لم تُجِبني واستمرَّت تبكي.

قلتُ: هل اشتقتِ لأهلِك؟ سنجدُ عمِّي يا أميرة. صدِّقيني.

قالَت: لم يهمُّوني حينَ قرَّرتُ الفرارَ معكِ، فهل سيهمُّونني الآن؟

قلتُ: إذن ما بالكِ؟ لماذا هذه الدموع؟

قالَت: يا ليلى، لقد وهبَكِ اللهُ الجمالَ والذكاء، وطالَما كنتِ أفضلَ منّي في أمورٍ كثيرة. والآنَ من يعرفُكِ يقعُ في حبِّك. يا لكِ من محظوظة.

قلتُ: ماذا هناكَ يا أميرة؟ لا أفهمُ سببَ هذا الكلامِ الآن.

قالَت: لقد طلبَ منّي ألّا أُخبِرَكِ حتى تجدي عمَّكِ.

قلتُ: من؟

قالَت: محمد.

دهشتُ. مفاجأةٌ لم تخطُر لي على بال.

كنتُ أنجذبُ نحوَه ببطء، وكانَ الحبُّ يتسلَّلُ إلى قلبي على أطرافِ أصابعِه دون أن يُحدِثَ صوتاً. لكنَّه لم يُشعِرني قطُّ بأنَّه يُبادِلُني شيئاً من هذا. كنَّا بارعَين في إخفاءِ ما يجري في دواخلِنا عن بعضِنا. ولم أتخيَّل يوماً أنَّه يُفكِّرُ في أن يطلُبَ يدي.

قلتُ: ولماذا أخفيتِ عنّي الأمرَ طوالَ هذا الوقت؟ وما علاقةُ ذلكَ بدموعِك؟

أخذَت نفساً ثمَّ قالَت: أنا أُحبُّه. نعم، أُحبُّه كثيراً. وحينَ أخبرَني بما قاله صارحتُه بإعجابي به. لكنَّه أخبرَني أنَّه لا يراني إلَّا كأُختٍ له.

كلّما ظننتُ أنّني أُمسِكُ خيطَ الأمورِ انزلقَ من بينِ أصابعي وانكسرَ ما تحتَه.

والحبُّ أشدُّ الأمورِ انزلاقاً.

قلتُ: هل هذا ما يُحزنُكِ يا أميرة؟ نحنُ في وسطِ كلِّ هذا ولا ندري ما يأتي غداً.

قالَت: لا، ليسَ هذا فقط. لقد ارتكبتُ خطأَين لن أسامحَ نفسي عليهما.

نظرتُ إليها بعيونٍ تتهيَّأُ للأسوأ.

قالَت: الخطأُ الأوَّلُ أنَّني أخبرتُ محمداً بأنَّكِ تُحبِّينَ أخي ولا تُفكِّرينَ في أحدٍ غيرِه. والخطأُ الثاني، وهو الأثقل على قلبي، أنَّني بعدَ أن عرفتُ أنَّ محمداً لا يُفكِّرُ فيَّ، سألتُ نفسي: ما الذي ينقُصُني عنكِ حتى لا يراني؟ وبدأَ الحقدُ يتغلغلُ في دمي والغيرةُ تكبرُ. وفي غفلةٍ من نفسي تعرَّفتُ على طالباتٍ في الشقَّةِ المقابلة. أبهرَتني جرأتُهنَّ وأناقتُهنَّ. كنتُ حينَ تخرُجين أذهبُ إليهنَّ وأتأمَّلُ حياتَهنَّ المليئةَ بالبهجةِ والتجربة. سألنَني إن كانَ لي عشيق. زيَّنَ الشيطانُ في عينيَّ ما زيَّنَ، فأعطيتُه رقمَ هاتفي، وبدأَت أُصغي لما يُسمِعُني ويملأُ غروري. وصارَ يومي يسيرُ بإيقاعِه دون أن أُدرِكَ كيف. وحينَ كثُرَ الشوقُ رتَّبنا لقاءً في شقَّةِ الطالبات. طلبتُ منهنَّ ألَّا يترُكنَّني وحدي معه، ووعَدنَ. لكنَّهنَّ خذلنَني. تركنَني وخرجن. وحصلَ ما حصل.

صرختُ: ما الذي حصل؟

قالَت بصوتٍ ينهار: رِفقاً بي. لم تكن إلّا لحظاتٌ حتى أمسكَ كتفَيَّ وشرعَ يُقبّلُني. شعرتُ بانهيارٍ تامٍّ وكادَ يُغمى عليَّ وصوتي يغرقُ داخلي فلم أستطِع أن أصرُخ. لكنَّ خوفَ الفضيحةِ أعطاني قوّةً لا أدري من أينَ جاءَت. دفعتُه وتوجَّهتُ نحوَ الباب وهو يشدُّني من حجابي فتركتُه له وهربت. وها أنا أمامَكِ الآن.

هانَت عنديَ مصائبُ الدنيا كلُّها وما جرى حتى تلكَ اللحظة. كادَت هذه تكونَ القاضية.

قلتُ لها والقهرُ يملأُ وجهي: لماذا يا أميرة؟ لِمَ لم تُخبِريني؟ لِمَ لم تستشيريني؟

قسوتُ عليها بكلماتٍ لم أُرِدها بهذه الحِدَّة، وهي صامتةٌ لا تُعقِّب.

أميرةُ منذُ أن غادرَت معي لم تتوقَّف عن اشتِهاءِ ما تجرِّبُه الأُخريَّات، دون أن تعيَ أنَّ لكلِّ حياةٍ ظروفَها ومبادئَها ومساراتِها التي لا تنفعُ في حياةٍ أخرى.

تبدَّلَت أميرةُ كثيراً منذُ تلكَ الليلة. صارَت تحملُ نفسَها كمن كُسِرَ شيءٌ فيه ولم يُصلَح بعد. حاولتُ أن أُنسيَها وأن تتناسى، فلا جدوى من الوقوفِ على الماضي. لكنَّ تلكَ الشعلةَ التي كانَت تتَّقدُ في قلبِها انطفأَت فجأةً كأنَّها لم تكن.

لاحظَ محمدٌ تغيُّرَها وكانَ يسألُني عنها باستمرار. أخبرتُه بأنَّها اشتاقَت إلى أهلِها وأنَّها تكادُ تيأسُ.

وبعدَ يومَين من تلكَ الحادثة بدا لي أنَّ نوراً قد بدأَ يُضيءُ في آخرِ النفق. وجدنا رجلاً قالَ إنَّه يعرفُ عمّي. أخبرَنا بأنَّه كانَ يعملُ مراسِلاً قبلَ ستِّ سنوات، لكنَّه انتقلَ منذُ ذلكَ الحينِ إلى إحدى المحافظاتِ القريبةِ من العاصمةِ ويعملُ حارساً في أحدِ مكاتبِ الصحَّة. لكنَّه لم يرَه منذُ ذلكَ الوقت.

عُدتُ في ذلكَ اليومِ وكأنَّني وُلِدتُ من جديد. بشَّرتُ أميرةَ فعادَ شيءٌ من النورِ إلى وجهِها.

قرَّرنا أنا ومحمدٌ الرحيلَ إلى تلكَ المحافظة.

وبينَما كنتُ أستعدُّ جاءَتني آمنةُ في وقتٍ غيرِ وقتِها. أخبرَتني بأنَّ عمَّها قد توفِّيَ وأنَّها تنوي الذهابَ إلى قريتِها للعَزاء، وأنَّها تحتاجُ ديناً سترُدُّه.

أعطيتُها مبلغاً وأقسمتُ عليها ألّا تردَّه. قلتُ لها إنَّها في مقامِ الأُختِ ولتعتبِرهُ هديَّةً لا دَيناً. احتضنَتني بقوَّةٍ وأقسمَت أن تردَّ الجميلَ إن جاءَت الأيَّامُ بما يُمكِّنُها من ذلك. فقلتُ لها: لا أطلبُ منكِ إلَّا الدعاء.

والذي أدهشَني أنَّ قريتَها تقعُ في نفسِ المحافظةِ التي نوينا قصدَها. فاتَّفَقنا على المغادرةِ سويَّاً.

وهكذا انطلَقنا في اليومِ المحدَّدِ بسيَّارةِ محمد، ولا تزالُ الرحلةُ تحملُ من الأسرارِ ما لم يحِن وقتُ الإفصاحِ عنه.

الفصل العاشر: كنزُ الأرض

انطلَقنا في اليومِ المحدَّدِ بسيَّارةِ محمد، وعليٌّ أخو آمنةَ يجلسُ قربَه، ونحنُ في الخلفِ نُملأُ الطريقَ بالكلامِ والضحكِ حتى لم نشعُر بمرورِ الوقت. للسفرِ سحرٌ يفتحُ الألسنةَ ويُخفِّفُ ما تحملُه الأرواح.

ولما دخلنا القريةَ طلبَت آمنةُ من محمدٍ أن يُوقِفَ السيَّارةَ أمامَ أرضٍ واسعةٍ تمتدُّ على جانبِ الطريق. تربةٌ رمليَّةٌ تختلطُ فيها بياضُ الجِصِّ بصُفرةِ الرمل، لا شجرةَ فيها ولا عُشبة، كأنَّ الحياةَ مرَّت من هنا ولم تتوقَّف.

قالَت آمنةُ وفي صوتِها حزنٌ قديمٌ تعوَّدَت حملَه: هل ترَين هذه الأرضَ يا ليلى؟ إنَّها أرضُنا، أنا وأُختي وأُمِّي. أخذَ إخوتُنا الخصبَ لأنفسِهم وتركوا لنا هذا. سامحَهم الله.

ردَّ عليٌّ من مقعدِه الأماميّ بصوتٍ أكبرُ من سنِّه: أنا لم آخُذ حصَّتي بعدُ ولم أحملِ العتَب، وأنتِ لا تزالين تحملينَه على هذه الأرض. حينَ أكبرُ وآخُذ ما يُعطَى لي سأُهديهِ لكم.

أحسَّت الأمُّ بالهواءِ يبدأُ بالتوتُّرِ بينَهما فبادرَت بنبرةٍ من يُضمِّدُ جرحاً لا يريدُ أن ينفتِح: يا بنيَّتي، لا تُقلِّبي المواجِع. لا طائلَ من الحزنِ، ادعي لهم بالهداية.

وبينَما كنَّا ننتظرُ أن يهدأَ الجوُّ، قفزَ محمدٌ من مكانِه ونزلَ من السيَّارةِ كأنَّ شيئاً يستدعيه. أهوى نحوَ الأرضِ وأخذَ حفنةً من ترابِها، يُقلِّبُها بينَ أصابعِه ويتفحَّصُها بعيونِ من يقرأُ ما لا يراه غيرُه. ثمَّ طلبَ كيساً ومضى يملأُه بصمتِ العارِف، ونحنُ نرقُبُه من النافذةِ في دهشةٍ لا تعرفُ اسمَها.

تذكَّرتُ أنَّه أخبرَني ذاتَ مرَّةٍ أنَّه يدرسُ علومَ التربة. تبادَلنا النظراتِ دون كلام.

عادَ أخيراً يحملُ الكيسَ ووجهُه يحملُ شيئاً لم نستطِع قراءَتَه.

قالَ: اسمَعيني يا ليلى. ستبقَين في القريةِ عندَ آمنةَ حتى الغد، وأنا سأعودُ إلى المدينةِ بهذه التربةِ لأُحلِّلَها، وسأرجعُ خلالَ يومَين. ماذا تقولين؟

صمتُّ قليلاً ثمَّ قلتُ: لا بأس. ولكن لماذا؟

قالَ: أعتقدُ أنَّ في هذه التربةِ جِصّاً عاليَ النقاءِ تطلبُه صناعةُ الأسمنت. لديَّ صديقٌ في شركةٍ تُرسلُ الآنَ بعثاتٍ تبحثُ عن هذا النوعِ بالذات. إن ثبتَ ما أظنُّه فصدِّقيني أنَّنا أمامَ كنزٍ لم يخطُر لأحدٍ على بال.

كلماتٌ كبيرةٌ بما يكفي ليسخرَ منها اليأس.

هزَزنا رؤوسَنا جميعاً في صمتِ من يُصدِّقُ دون أن يُصدِّق تماماً. لكنَّني قلتُ له لا بأسَ، على ألَّا يتأخَّرَ أكثرَ ممَّا قال.

ودَّعناه وتركنا محمداً يعودُ إلى المدينة وذهَبنا إلى العَزاء. استقبلَنا أهلُ القريةِ بدفءِ من يعرفُ الحزنَ ويُكرمُ ضيفَه، وأحسَنوا ضيافَتَنا.

مرَّ ذلكَ اليومُ والذي يليه بهدوءٍ ظاهِر. لكنَّ الهدوءَ الظاهرَ أحياناً ليسَ إلَّا غطاءً للقلقِ الذي ينمو. بدأَت الوساوسُ تتسلَّلُ إليَّ كأنَّها كانَت تنتظرُ فراغَ الوقت. حاولتُ الاتِّصالَ بمحمدٍ مرَّةً ومرَّتَين وعَشراً، وفي كلِّ مرَّةٍ يُقابلُني صمتٌ أثقلُ من أيِّ كلام. هاتفُه مُغلَق. لا صوتٌ ولا ردٌّ ولا أثَر.

مرَّ اليومُ الثالثُ وقلبي يحترقُ بسؤالٍ يأبى الصمت: أينَ محمد؟ هل أصابَه شيء؟ أم أنَّه ترَكنا كما تتركُ الريحُ ما لا تحتاجُه؟

ثمَّ جاءَ اليومُ الرابعُ وانفجرتُ بالبكاءِ دون سابقِ إنذار. لا أدري أكانَ حزناً على حبٍّ خشيتُ أن يكونَ وهماً، أم على ثقةٍ خشيتُ أن تكونَ سذاجة.

غشيَني الحزنُ حتى المساء، وأميرةُ تُراقبُني بصمتِ من يقرأُ خلفَ الدموع، وآمنةُ تُطمئنُّني أنَّها ستكونُ معي في البحثِ عن عمِّي.

لكنَّ قلبي في تلكَ اللحظةِ لم يكن يفكِّرُ في عمِّي وحده. كانَ يفكِّرُ فيمَن أحبَبتُه بصدقٍ لم أعرِفه من قبل، فيمَن أذاقَني حلاوةَ القلبِ الطيِّبِ وحلاوةَ الصبرِ الجميل، فيمَن اصطادَ قلبي دون أن يرميَ شَبَكة. وأدركتُ في تلكَ اللحظةِ كم صارَ يملكُ من روحي.

حاولتُ أن أُقنعَ نفسي بأن أبدأَ من جديدٍ بدونِه، أن أُرتِّبَ أفكاري وأُعيدَ حسابَ خطواتي. لكنَّ القلبَ حينَ يُحِبُّ لا يعرفُ الإقناع.

سأنزلُ الآن. آمنةُ تنتظرُني ولن تصبرَ أكثر.

قالَت آمنة: أخيراً. أينَ أنتِ حتى الآن؟

قلتُ: كنتُ مستغرِقةً في تذكُّرِ الماضي.

قالَت بنبرةٍ فيها ثقلُ السنينَ المرَّة: الماضي. آهٍ من الماضي. لم يحملِ الماضي لي إلّا الأثقلَ فالأثقل.

قلتُ: نعم، لقد عانيتِ الكثيرَ يا آمنة. لكنَّ المولى رعاكِ حتى أكرمَكِ بما أنتِ عليه الآن.

والقدرُ لا ييأسُ منَّا حتى حينَ نكادُ نيأسُ منه.

مرَّ ما يُقاربُ أسبوعاً. وكنتُ سأكذبُ على نفسي لو قلتُ إنَّني نسيتُكَ يا محمد. لا أذهبُ ولا أجيءُ إلَّا وذِكره يسبِقُني. حتى القمرُ صارَ يُذكِّرُني به.

بقيَت آمنةُ ولم تعُد إلى المدينة، أرادَت أن تكونَ معي حتى أجدَ عمِّي. وشرَعنا نبحثُ معاً في أنحاءِ المحافظة. كانَ البحثُ كالتخبُّطِ في الضباب أحياناً، لكنَّني وجدتُ في نفسي شيئاً لم يكن فيها من قبل؛ صِرتُ أواجهُ الأيَّامَ بثقةٍ أصلَب، وأتكيَّفُ مع ما يأتي بأقلِّ ارتجاف.

وهكذا مرَّ الأسبوعان.

وفي صباحِ أحدِ الأيَّامِ التي تلَتهما، بينَما كانَت خيوطُ الشمسِ تتسرَّبُ من فُرَجة النافذةِ وتُداعبُ جفونيَ الثقيلة، دقَّت آمنةُ البابَ بقوَّةٍ تحملُ خبراً لا تستطيعُ انتظارَ فتحِه: محمدٌ قد جاء.

انتفضتُ من مكاني قبلَ أن يُدرِكَ عقلي ما يجري، وفي يدي مخدَّةٌ أمسَكتُها دون أن أشعُر. انطلقتُ أجري حتى وصلتُ إلى الديوانِ حيثُ كانَ وحدَه.

دخلتُ عليه فقامَ من مكانِه.

قلتُ له رغماً عنّي: أنتَ حقير. وما عَساي أقولُ أكثرَ من ذلك.

قالَ متفاجِئاً: لم أسمَعكِ قطُّ تقولينَ لي هذا. لماذا؟

انفجرتُ بالبكاءِ ورميتُ المخدَّةَ عليه.

قلتُ: لماذا غِبتَ كلَّ هذه الأيَّام؟ ألم تقُل يومَين؟ هاتفُك مُغلَقٌ ولم تتَّصِل بنا.

قالَ بنبرةٍ جمعَت بينَ الألَمِ والدفاعِ الصادِق: ألا تثقين بي يا ليلى؟ بعدَ كلِّ هذا تشكِّين فيَّ؟ هاتفي وقعَ في الماءِ وتعطَّلَ تماماً فاشتريتُ هاتفاً آخَر. وحينَ نقلتُ الشريحةَ إليه اكتشفتُ أنَّ أرقامَكنَّ لم تكن مُسجَّلةً فيها، بل كانَت مخزَّنةً في ذاكرةِ الهاتفِ القديمِ الذي احترقَ من الداخل. لم يكن بإمكاني الوصولُ إليها بأيِّ طريقة. واللهِ كنتُ قلِقاً، وكلَّما مرَّ يومٌ كنتُ أُحسُّ بقلقِكنَّ من غيابي وأعرفُ كم يثقلُ عليكنَّ الصمت. لكنَّني كنتُ واثقاً أنَّكِ تثقين بي يا ليلى. كنتُ واثقاً أنَّكِ ستصبِرين.

وقفتُ أُحاولُ أن تستوعِبَ روحي ما سمِعَتهُ. كانَ تفسيرُه بسيطاً ومنطقيّاً وأوجعَني لأنَّني لم أُفكِّر فيه.

قلتُ وفي صوتي بقيَّةٌ من الحِدَّة: لقد أحرقتَ دمي. ظننتُكَ تركتَنا إلى الأبد.

قالَ: تشكِّين فيَّ يا ليلى؟

صرختُ دون أن أقصِد: لأنَّني قلِقتُ عليكَ أنت.

خرجَت تلكَ الكلماتُ قبلَ أن أأذنَ لها. وقفتُ مذعورةً من نفسي. أميرةُ وآمنةُ خلفي وقد سمِعتا كلَّ شيء. تلعثَمتُ وتراجعتُ وصمَتّ.

"بعد أن اشتريت الهاتف الجديد، اتصلت بي إحدى زوجات الشيخ. أخبرتني أن عمي يريد أن يكلمني في أمر مهم — في تزويجي بابنته".

لم أكن أتوقع هذا.

شيء تحرّك داخلي لم أتوقعه ولم أستطع تسميته بسرعة كافية لأوقفه. لم يكن غضباً. كان أهدأ من الغضب وأكثر إيلاماً — ذلك الوجع الخاص بمن يدرك في لحظة خاطئة وعبر كلمات خاطئة كم هو كبير ما يمكن أن يخسره. لم يكن لي عليه أي حق. لم تمرّ بيننا كلمة واحدة تمنحني الحق في الشعور بما كنت أشعر به. ومع ذلك كان هناك، يستقر في صدري كحجر يجد قاع ماء ساكن.

لم أقل شيئاً. أبقيت وجهي ساكناً بقدر ما استطعت.

أكمل: "اتصلت بالشيخ في نفس اليوم. لم أتجاهله هذا ما لا أستطيع فعله مع رجل أواني حين لم يكن عليه ذلك، وأعطاني كل شيء حين لم يكن عندي شيء. لكنني طلبت منه مهلة. قلت له إن الامتحانات على الأبواب وإنني أريد أن نتكلم بعدها بهدوء وعقل صافٍ. قبِل".

توقف، وشيء تغيّر في تعبير وجهه.

"لكنني كنت أعرف في داخلي، حتى وأنا أقول ذلك، أن المهلة لم تكن للتفكير حقاً. كانت لأجد الشجاعة على الكلام".

نظرت إليه.

"والامتحانات،" قلت بحذر. "هل كانت حقيقية؟"

"الامتحانات كانت حقيقية." قال. "لكنها كانت أيضاً مريحة".

صدق هذه الجملة وقع عليّ بطريقة مختلفة عن كل ما قاله قبلها.

"وفي تلك الأيام نفسها انكشف أمر صاحبي في الشركة".

حكى لي كل شيء حينئذٍ محاولة صاحبه الاستئثار بالأرض وإقصاء الجميع بهدوء ودون ضجة. العرض الأول بالمال مقابل تفاصيل الموقع وأسماء الملاك. رفضه. ثم العرض الثاني: منصب حقيقي، براتب ومستقبل وكل ما كان يسعى إليه منذ بداية دراسته. حكى لي عن الليلة التي قضاها يحسب ويُقنع نفسه، يُقلّب الأمر حتى بدا مقبولاً من كل زاوية. ثم جاء الصباح ورأى الأمور على حقيقتها. ذهب مباشرة إلى مدراء الشركة، وضع كل شيء على الطاولة، وتفاوض من هناك لصالحنا نحن، لا لصالح صاحبه.

"وأرقامنا؟ طوال كل هذا؟"

"كنت أحاول إيجاد طريقة. لكن الأيام كانت تبتلع بعضها".

صمت لحظة. ثم نظر إليّ بطريقة لم ينظر بها إليّ من قبل قط.

"تعرفين ما الذي يُضحكني؟"

لم أقل شيئاً.

"جلست معكِ طويلاً أسمع قصتك. وها أنا اليوم واقف في المكان ذاته الذي وقفتِ فيه أنتِ أمام رجل أحمل له من الامتنان ما لا تسعه الكلمات، وأمام طلب لا أستطيع القبول به".

شيء في صدري تحرّك دون إذني. لم أكن أتوقع هذه الكلمات، ولم أكن مستعدة لما فعلته بي. الحجر الذي استقر هناك حين ذكر ابنة الشيخ لأول مرة خفّ وزنه بهدوء. ليس دفعة واحدة. لكن بما يكفي للتنفس.

"الشيخ يستحق أكثر من الصمت." قلت.

"يستحق." لم يكن في صوته تردد. "وسأكلمه حين أعود بكل الاحترام الذي يستحقه وبكل الوضوح الذي يستحقه أيضاً. لكنني كنت أحتاج أن أقف على شيء أولاً. لا تستطيع أن تقول لا حين لا يكون تحت قدميك أرض".

فهمت حينئذٍ ما كان يعنيه. وفهمت شيئاً آخر أيضاً شيئاً لم أسمح لنفسي بفحصه حتى تلك اللحظة. لم يكن يتكلم عن الشيخ وحده. كان يتكلم عن كل شيء، عن الحياة التي يختارها والتي يرفضها، عن الأرض التي يحتاجها الإنسان تحت قدميه قبل أن يستطيع الوقوف منتصباً ويقول الحقيقة دون أن يتكسر صوته.

نظرت إلى كيس التراب الصغير الجالس على الطاولة. ذاك الذي ملأه بيديه وهو يجثو فوق أرض أمينة بينما كنا نراقبه من النافذة دون أن نفهم.

قلت بهدوء: "أسبوعان يا محمد. أسبوعان".

قال: "أعرف. وهذا لا عذر له".

أخبرَني محمدٌ بعدَها أنَّ الشركةَ أكَّدَت اهتمامَها وقرَّرَت إرسالَ بعثتِها خلالَ اليومَين القادمَين. الأرضُ تحملُ ما كانَ يظنُّه، وتوقَّعَ عقوداً بالملايين.

دخلَت آمنةُ تسألُ إن كانَ ما تسمعُه حقيقاً. أكَّدَ لها محمد. فأقسمَت إن وقعَ ما يقولُه فإنَّ نصفَ الأرضِ سيكونُ لها ولأمِّها وأختِها، والنصفُ الآخرُ لي ولأميرةَ ولمحمد.

قلتُ لها ألَّا تستعجِلَ حتى تأتيَنا الأيَّامُ بما يُؤَكِّد.

ولم تكن إلَّا أيَّامٌ حتى جاءَت البعثة، استغرقوا في التنقيب أسابيع ، ومحمدٌ يرعى الأمرَ من أوَّلِه إلى آخِره. فتوصلوا الى أنها الأرض التي يريدونها

وهكذا جاءَ الرزقُ من حيثُ لم نحتَسِب، ومن طريقٍ لم يخطُر لأحدٍ على بال. أبرمَت الشركةُ عقودَها وانزلت شاحناتها والمالُ بدأَ يتدفَّقُ كأنَّه كانَ ينتظرُ أن يُؤذَنَ له. وصِرنا كمن يعيشُ حُلُماً يخشى أن يُنبِّهَه أحد.

علم اهل القريه بهذا الحظ العظيم الذي يحسد عليه ، صاروا يتدفقون الى منزل امنه يرجون منها ان لا تنساهم ، فوعدتهم بذلك رغم ان الجميع نساها و نحينَ علمَ إخوةُ آمنةَ بما حدثَ عادوا يطلبونَ الرضى ونصيباً ممَّا أُوتيَت ايضا. فأشفقَت الأمُّ عليهم رغمَ كلِّ ما فعَلوه، وأعطَتهم شيئاً ممَّا ملَكَت، لأنَّ القلبَ الطيِّبَ أعجزُ من أن يُحكِمَ بابَه حتى على من آذاه.

ولم تُخلِف آمنةُ وعدَها. أعطَتني وأعطَت أميرةَ ومحمداً نصيبَنا من الأرض. لم تكن واسعةً جداً، لكنَّها كانَت كافيةً لتُغيِّرَ حياتَنا في يومٍ وضُحاه. وتغيَّرَ كلُّ شيء.

✦ ✦ ✦

الفصل الحادي عشر: وجدتُ عمِّي

هل وجدتُ عمِّي؟

نعم. وجدتُه.

لكن أين؟

بعدَ أن تتبَّعَ محمدٌ الأدلَّةَ بنفسِه خطوةً خطوة، جاءَني بخبرٍ لم أكن أتوقَّعُ أن يأتيَ بهذا الشكل. ما أقسى النعمةَ حينَ تكونُ غصَّةً على القلبِ قبلَ أن تكونَ عطاء.

عمِّي الذي كانَ رهانَ رحلتي من البداية، الذي بنيتُ عليه كلَّ حساباتي وكلَّ آمالي، كانَ في المستشفى. مريضٌ يُصارعُ المرضَ الخبيثَ الذي لا يستأذِن.

لم أستطِع الاكتفاءَ بالخبر. أصرَرتُ على رؤيتِه بعيني حتى يطمئنَّ قلبي ولو على مرارة. ذهَبنا إليه أنا وأميرةُ وآمنةُ ومحمد.

ولما وصلنا بوابةَ المستشفى كادَ قلبي أن يخرجَ من مكانِه. كانَ ينبضُ بقوّةٍ تؤلِم، كقلبِ من قطعَ طريقاً طويلاً ليقفَ أخيراً أمامَ بابٍ لا يعلمُ ما الذي ينتظرُه خلفَه. كنتُ أعدُّ خطواتي وأقولُ في نفسي: لم يَعُد بيني وبينَه إلَّا أمتار.

دخلنا. باشرَ محمدٌ البحثَ عندَ الاستعلامات، وقيلَ لنا إنَّه في الطابقِ الثاني، الغرفةُ رقم خمسةٌ وأربعون. آثرَت أميرةُ البقاءَ عندَ البوابةِ مع محمد، لم تُرِد الدخولَ حتى تتأكَّدَ أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام. صعِدتُ أنا وآمنة.

دخلتُ الغرفةَ واختلطَت مشاعري تماماً وهاجَت روحي. لم أكن قد رأيتُ هذا المرضَ من قبلُ ولم أتعرَّف على طريقتِه في التعاملِ مع أصحابِه. رأيتُ معركةً صامتةً خامدةً تدورُ في أرجاءِ تلكَ الغرفة، معركةٌ لا أنا ولا غيري يستطيعُ المشاركةَ فيها، معركةٌ بينَ هؤلاءِ المرضى وأجسادِهم. لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله.

توجَّهتُ نحوَ كرسيَّين فارغَين قربَ النافذةِ وجلستُ في صمتٍ أُقلِّبُ ناظِريَّ بينَ من في الغرفة. لا أعلمُ أيُّهم عمِّي.

كانَ هناكَ شابٌّ في أحدِ الأسرَّة. لا بدَّ أنَّه ليسَ عمِّي، فعمِّي رجلٌ تجاوزَ الخمسين. رأيتُه فتمزَّقَ قلبي لسببٍ لم أكن أتوقَّعُه. بهيُّ الطلعةِ جميلُ الوجه، يتحدَّثُ بصوتٍ لا أكادُ أسمعُه إلى من بجانبِه، أمُّه أو زوجتُه أو أختُه، لا أدري. وأدركتُ أنَّه ربَّما سيخسرُ هذا الجسدَ قريباً ولن يبقى له منه شيء. ولولا يقينُنا بأنَّ ما بعدَ هذه الحياةِ أعظمُ وأبقى لكانَ الألمُ لا يُحتَمَل.

كانَت هناكَ ثلاثةُ أسرَّة. وعندَ أحدِها امرأةٌ عجوزٌ جالسة، تمسحُ رأسَ المريضِ تارةً وتُدفِئُه تارةً أخرى، بتلكَ الحركةِ الهادئةِ التي لا تعرفُها إلَّا الأمَّهاتُ اللواتي أحبَبنَ طويلاً.

ثمَّ فجأةً دخلَ شابَّان طوالُ القامة. توجَّها نحوَ تلكَ المرأةِ فقبَّلا رأسَها، ثمَّ انحَنيا على المريضِ الذي بدأَ يتملَّكُني الشكُّ أن يكونَ هو عمِّي. ودخلَ الطبيبُ ونادى باسمِه.

في تلكَ اللحظةِ أيقنتُ. أيقنتُ أنَّه عمِّي. وأنَّ هذَين الشابَّين هما ابناه الذَين لم أرَهما قط.

وذرفَت دموعي دون أن أستأذِن. وآمنةُ تُطبطبُ على كتِفي بصمتِ من يعرفُ أنَّ بعضَ اللحظاتِ لا يُعينُها كلام.

خرَجنا بصمت.

ذهَبتُ فوراً إلى الاستعلاماتِ ودفعتُ مبلغاً كبيراً على أن يُوفِّروا له غرفةً خاصَّةً وجميعَ تكاليفِ علاجِه، وطلبتُ منهم أن يُخبِروه بأنَّها من فاعلِ خير. عمِّي لم يَعُد يملكُ القوَّةَ لنفسِه، فأيُّ عونٍ كانَ سيُقدِّمُه لنا؟

خرجتُ وأنا أجرُّ خلفي كلَّ ثقلِ الفشلِ والإحباطِ واليأس، والدموعُ تنصبُّ كأنَّها لن تنتهي. رضيتُ بقدَريَ المجهول. آمنةُ ومحمدٌ بجانبي يُطمئنَّانِني، لكنَّ

شيئاً في أعماقي كانَ يهمسُ بأنَّني لن أعيشَ حياةً كبقيَّةِ الناس. أملكُ اليومَ المالَ الذي يُغني، لكنَّ ثمَّةَ أشياءَ لا يشتريها مال.

عُدنا إلى المدينة.

لكنَّني بعدَ ليالٍ من الجلوسِ مع نفسي في الصمت، قرَّرتُ ألَّا أسمحَ لليأسِ بأن يكتبَ نهايتي. لم أرضَ أن تقفَ حياتي عندَ حدودِ الإحباط. ما دامَ في الصدرِ نفسٌ فثمَّةَ ما يُبنى.

وبما أنَّني كنتُ قد حملتُ معي أوراقي التعريفيَّةَ وشهاداتِ المرحلةِ الابتدائية، أدخلَني محمدٌ إحدى المدارسِ الحكوميَّةِ وشرحَ لمديرَتِها وضعي كفتاةٍ من القرى تحتاجُ إلى الدعم. وتمَّ قبولي رغمَ كِبَرِ سنِّي، لأنَّ المالَ حينَ يكونُ بيدِك يُيسِّرُ ما كانَ عسيراً ويُليِّنُ ما كانَ صُلباً.

أمَّا آمنةُ ورزقُها فإنَّ محمداً أخذَ يُديرُه كما يُديرُ أموالي. لا يشتري أرضاً إلَّا أشركَنا فيها، ولا مبنىً ولا مشروعاً بدعمٍ من عمِّه الشيخِ إلَّا كنَّا شركاءَه. تدفَّقَت الأموالُ حتى اشترَينا منزلاً بالملايين، وصارَ لنا حارسٌ وسيَّارات.

وكانَت المدرسةُ مساحةً واسعةً للصراعِ من أجلِ إثباتِ الذات. كم من موقفٍ وقفتُ فيه أمامَ مهاتَراتٍ وتحدِّياتٍ وامتحاناتٍ كانَت في مجموعِها تقولُ لي: هل ستكونين ليلى التي اخترَت أم ليلى التي هُزِمَت؟ واخترتُ في كلِّ مرَّة أن أكونَ ليلى.

وحينَ كنتُ أُسألُ عن وليّ أمري لم أجِد إلّا محمداً، الذي تظاهرتُ بأنَّه زوجي حتى يتمكَّنَ من متابعةِ شؤوني.

في تلكَ الأيَّامِ الموحِشةِ كنتُ أشعرُ بالوحدةِ حقّاً، وكنتُ أشتاقُ إلى أمِّي وإخوتي بشكلٍ يؤلِم. لكنَّ من يختارُ سبيلَه في الحياةِ مختاراً يستطيعُ أن يتحمَّلَ حتى جانبَه المظلِم، ويجدَ في اختيارِه عزاءً يُعينُه على المضيّ.

وهكذا مرَّت السنواتُ السبعُ كلمحِ البصر. أنهيتُ المرحلتَين الإعداديَّة والثانوية. صقلَتني الأيَّامُ حتى ما عُدتُ تلكَ الفتاةَ التي خرجَت من قريةٍ نائيةٍ في ليلٍ مكتملِ القمر. أصبحَ لديَّ زخمٌ أكبرُ من هذا العالمِ الواسع. وأصبحتُ أرى ما كنتُ لا أراه، وأعرفُ ما كنتُ لا أعرفُه.

كنتُ بينَ الحينِ والآخرِ أتقصَّى أخبارَ أهلي وإخوتي، وأُرسِلُ إليهم الأموالَ في السرِّ دون أن يعلَموا من المرسِل. قضيتُ عنهم ديونَهم وهم لا يعلَمون من فاعلِ الخير.

ثمَّ في أحدِ الصباحاتِ المتشابِهة، استيقظتُ وأشواقي لأمِّي وإخوتي أكبرُ من قُدرتي على احتِوائِها. فأرسلتُ من يتقصَّى وجاءَتني الأخبار.

عُمَرُ قتلَه رجلٌ من القرية. ولا عجبَ أن تكونَ هذه نهايتَه، فقد زادَ في جورِه وظُلمِه وكبريائِه حتى استطاعَ أن يزرعَ أشواكَ الحِقدِ والضغينةِ في كلِّ قلبٍ من حولِه.

حسنٌ تزوَّجَ وأصبحَ لديه أطفال.

وأمِّي صارَ الناسُ ينتظرونَ ساعتَها في أيِّ وقت.

غصَّتني تلكَ الأخبارُ وجثمَ الذنبُ على صدري. قرَّرتُ أنَّني يجبُ أن آخُذَ عفوَها على الأقلِّ قبلَ أن توافيَها المنيَّةُ وترضى عليَّ.

✦ ✦ ✦

الفصل الأخير: فجرٌ جديد

فكَّرتُ في طريقة.

بدأتُ بإرسالِ الأموالِ إليهم وقضاءِ ما تبقَّى من ديونِهم، عسى أن تلينَ القلوب. ثمَّ لجأتُ إلى فكرةٍ أعمق: أن أطلبَ من أحدِ الشيوخِ الكِرامِ حمايتَه ووساطتَه في الصُّلح.

ولما توسَّطَ لي محمدٌ عندَ شيخٍ كريمٍ وعرفَ قصَّتي، لم يرَ مانعاً في الصُّلحِ طالما إنَّني حافظتُ على شرَفي وعِفَّتي. أرسلَ إليهم في الحالِ. ولما علِموا أصابتَهم الدهشةُ والذهول؛ عرَفوا أخيراً من كانَ يُرسِلُ الأموالَ ويقضي الديون، لكنَّهم لم يستطيعوا أن يتخيَّلوا الإجابةَ على سؤالِ كيف.

حدَّدَ الشيخُ يوماً للقاءِ الرجال، وأخذَ منهم كلمةً أمامَ الجميعِ بالصفح. ولما تمَّ ذلك، رجوتُ الشيخَ أن يطلبَ منهم المجيءَ إلى منزلي في العاصمة، وأن

يُرسِلَهم مع رجالِه حتى يكونَ لقاؤنا في حضرتِهم وتحتَ حمايةِ العهودِ والأعراف.

كانَت أيَّاماً عصيبةً من مدٍّ وجزر. لن أكذبَ فأقولَ إنَّني لم أخَف؛ خِفتُ. خِفتُ أن يتجاوزَ أحدُ إخوتي كلَّ العهودِ ويُقدِمَ على ما لا يُرَدّ. لكنَّني قلتُ في نفسي: إن كانَت ساعتي ستنتهي هنا فليكن، يجبُ أن أذهبَ نحوَ نهايتي المحدَّدة. من قرَّرَ المجازَفةَ من البداية سيبقى مُجازِفاً حتى النهاية.

ومع ذلكَ كانَ جانبٌ كبيرٌ من قلبي وعقلي يفتحانِ لي أملاً لا يُغلَق.

نعم. أرى فجراً جديداً يشعُّ بجرأةٍ لا تعتذِر. ومثلَما شعَّ ذلكَ الفجرُ الأوَّلُ حينَ خطَّت قدماي خارجَ البابِ الخلفيِّ في ليلٍ مكتملِ القمر، سيظلُّ اليومُ أقوى.

اليوم. نعم

لطالَما انتظرتُه.

أقفُ الآنَ بجانبِ آمنة، والشمسُ تُعلِنُ عن نفسِها في شُجاعةٍ مطلَقة. هي الشمسُ ذاتُها التي رافقَتني في كلِّ لحظاتِ ذلكَ الهربِ المجنون، والشمسُ ذاتُها التي شهِدَت على خطواتي في الوادي حينَ كنتُ أحملُ أميرةَ على كَتِفي.

فاليومُ سيكونُ هذا اللقاءُ المنتظَر. اللقاءُ الذي انتظرتُه طويلاً أنا وأميرة.

لطالَما اعتقدَ الناسُ أنَّ التمرُّدَ جنونٌ أو عارٌ أو ضَلال. لكنَّه كانَ بالنسبةِ لي مجرَّدَ أن أُؤمِنَ بأنَّ لي حقَّ الاختيار. وأنَّ لا شيءَ يُعطيكَ إيَّاه إن لم تأخُذه بيدِك.

لم أكن أريدُ أن أكونَ بطلةً ولا أُسطورة. كنتُ أريدُ فقط أن أقرِّرَ. أن أختار. أن أكونَ ليلى، لا تلكَ الصورةَ التي رسَمَها الآخرون.

والآنَ وأنا أقفُ هنا والشمسُ تُقبِّلُ وجهي بدفئِها القديم، أعرفُ أنَّني وإن كنتُ قد خسِرتُ أشياءَ كثيرةً على طولِ هذا الطريق، فإنَّني كسِبتُ شيئاً لا يُشترى بثمن؛ كسِبتُ نفسي.

نحن.

أجل، نحنُ المتمرِّدات.

✦ ✦ ✦

انتهت الرواية